رحلة

الإيطالي كاسبارو بالبي

الى حلب - دير الزور - عنه - الفلوجة - بغداد

سنة ١٥٧٩م

عربها عن الايطالية وعلق عليها

الأب د. بطرس حداد





رحلة

الإيطالي كاسبارو بالبي

الى حلب - دير الزور - عنه - الفلوجة - بغداد


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

رحلة

الإيطالي كاسبارو بالبي

الى حلب - دير الزور - عنه - الفلوجة - بغداد

سنة ١٥٧٩



عرّبها عن الايطالية وعلّق عليها

الأب د. بطرس حداد

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى

٢٠٠٨م - ١٤٢٩هـ



الدار العربية للموسوعات

الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط1 - بيروت - لبنان
ص.ب: 511 الحازمية - هاتف: 00961 5 952594 - فاكس: 00961 5 459982
هاتف نقال: 00961 3 388363 - 00961 3 525066 - بيروت - لبنان
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

مؤسسها ومديرها العام: خالد العاني

مقدمة المعرب

هذه رحلة الجوهري البندقي - نسبة إلى مدينة البندقية بإيطاليا - كاسبارو بالبي Gasparo Balbi الذي قدم إلى العراق في الربع الأخير من القرن السادس عشر وهو في طريقه إلى الهند. وتعد هذه الرحلة من أهم الرحلات لما فيها من معلومات تاريخية وجغرافية تخص العراق أولاً، ولقدمها ثانياً، ولم ينقل نصها إلى العربية حتى الآن، لذلك أخذت على عاتقي هذا العمل خدمة للباحثين والمؤرخين.

صاحب الرحلة

تعد أسرة بالبي من البيوتات العريقة في مدينة البندقية. في هذه الأسرة ولد الرحّالة كاسبارو بن ترانكويللو الذي كان يعمل مساعد قبطان في إحدى السفن المخصصة لحامية كريت.

ولد كاسبارو نحو سنة ١٥٥٠ في البندقية، ولا نعلم

شيئاً عن مطلع حياته، كل ما لدينا من معلومات عنه إنه قرر الرحيل إلى الشرق في مرحلة كثرت فيها رحلات العمل والتجارة إلى الشرقين الأوسط والأقصى سعياً وراء التوابل والأحجار الكريمة وغير ذلك.

وكانت البندقية في ذلك العهد في أوج عزها وكانت تسعى لمنافسة البرتغال وأسبانيا في ميدان التجارة الخارجية.

فاتح كاسبارو تاجرين معروفين في مدينته ليقرضاه بضائع مرغوبة في الشرق ليتاجر بها في بلاد الشام لقاء أحجار كريمة يحصل عليها هناك فيرسلها إليهما، فإقتنعا بكلامه ولبيا طلبه، فتسلم منهما ما قيمته ١٠٤٤ دوكاه (دوقية) وشد الرحال إلى الشرق نحو سنة ١٥٧٦ أو بعدها بقليل وهو إنذاك في عز وشبابه.

مرت الأيام والسنون والتاجران ينتظران على أحر من الجمر وصول الأحجار الثمينة التي كانا يحلمان بها لكنهما لم يتسلما شيئاً، بل لم يصلهما خبر من بالبي، فتسربت الشكوك إلى نفسيهما وعيل صبرهما، عندئذ كتبا إلى صديق لهما مقيم في حلب، إذ كان في حلب مَكاتب عديدة للصيرفة تعمل هناك، فوجها إلى هذا الصديق وكالة تاريخها ١٦ نيسان ١٥٧٩ يخولانه فيها البحث عن بالبي ومقاضاته. عندئذ كتب بالبي رسالة تاريخها ١ تشرين الثاني من تلك

السنة يشرح فيها سبب صمته الطويل، فقد عانى الكثير في رحلته المزعجة، لكن مع كل ذلك مضى قدماً إلى الهند عن طريق ما بين النهرين، ويضيف: إنه استدان مبالغ طائلة من أصدقاء بندقيين آخرين ليتاجر بها في الشرق الأقصى. ويعدهما أخيراً بأنه سيعود بعد سنتين، ويتعهد بإعادة المبالغ التي لهما في ذمته.

طال الغياب، وانتقل التاجران إلى الرفيق الأعلى، ولم يعد صاحبنا إلى بلده إلا بعد سنوات أي نحو سنة ١٥٨٨؛ فأقام ورثة التاجرين المتضررين دعوى عليه، وبعد أخذ ورد توصل الطرفان إلى حسم النزاع سلميًّا، لكن بالبي لم يلتزم بوعده، فأشتكيا عليه من جديد وألقي القبض عليه هذه المرة وزج في السجن في ١١ تموز ١٥٩٠ وبقي نزيل السجن أسبوعاً كاملاً حتى خرج منه بكفالة. ويظهر من أعمال المحكمة أنه كان يستعد لرحلة جديدة إلى الهند، لكننا لا نعلم أن كان قد رحل أم لا. كما لا نعرف بالضبط سنة وفاته التي حدثت بين سنة ١٦٢١ - ١٦٢٥ إذ نجد له وصية مكتوبة تاريخها ١٦٢١ وكان قد أصبح في ذلك الوقت صاحب محل للجواهر، بينما في سنة ١٦٢٥ لا يرد اسمه في سجلات الكاتب العدل الخاصة بالجوهريين فلعله مات في إحدى تلك السنين.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الرحلة

تبدأ رحلته عند مغادرته حلب في ١٣ كانون الأول ١٥٧٩ وبعد يومين يصل إلى بيره جك على الفرات حيث يستقل مركباً ينحدر به إلى الفلوجة، بعد أن يمر بالقائم وعنه وهيت. ومن الفلوجة يذهب برًّا إلى بغداد لينزل في دجلة إلى البصرة التي يصلها في ٢١ آذار ١٥٨٠ ويغادرها بطريق البحر إلى هرمز. إنه الطريق التي مر به الرحالة العربي ابن بطوطة صاعداً. وقد ذكر بالبي في هذا القسم من الرحلة - أي القسم العراقي - نحو مئة وثلاثين موقعاً بين مدن مهمة وقصبات وقرى صغيرة، وهنا تكمن أهمية هذه الرحلة.

بعد أن طاف في الهند وسيلان وغيرهما عاد سنة ١٥٨٧ إلى البصرة ومنها إلى بغداد عن طريق دجلة أيضاً فوصلها في ٢٣ تشرين الثاني من تلك السنة. ثم تركها عن طريق حلب راجعاً إلى بلاده.

عند قراءة الرحلة نستنتج أن بالبي كان يحتفظ بدفتر

يسجل فيه يوميات السفر، ففي رحلته دقة لا نلقاها في نصوص الرحلات الأخرى، فهو يذكر التواريخ والساعات وأسماء المواقع، بحيث يستطيع القارئ تتبع محطات رحلته يوماً بعد يوم.

إنه يحب الإختصار، ولذا أهمل عن تعمد سرد أحداث الرحلة من البندقية إلى حلب لأن كثيرين من قبله تطرقوا إليها فهي معروفة لدى القراء، وفعل ذلك أيضاً في نهاية الرحلة إذ توقف عن الكلام بعد مغادرته بغداد.

ليس من الواضح أن كان بالبي يتكلم العربية أم لا، ولعله كان يستطيع التفاهم بها، فسأل مرافقيه عن أسماء المدن والقرى وكتبها نقلاً عن السماع لا أكثر، فضبط بعضها وتشوه بعضها في كتابه.

ملاحظات في الرحلة

(أ) لم يترك بالبي صغيرة ولا كبيرة دون أن يسأل عنها المسافرين أو الملاحين وكان يسجل في دفتره أسماء المواقع كما يسمعها منهم، وأخبار الناس وعاداتهم كما يفهمها من مرافقيه. لذا نجد في رحلته وصفاً حسناً للسفن والقوارب المستعملة في العراق، وأسماء المدن والقرى، وبعض الملاحظات عن المواقع الأثرية في قطرنا.

وهنا لا بد أن أشير إلى الصعوبة التي جابهتنا أثناء

العمل، ذلك أن المؤلف عند إيراده أسماء المواقع، كثيراً ما يذكرها بصورة مغلوطة. لذا أوردت في الترجمة تلك الأسماء بحروفها الأصلية كما هي في النص الإيطالي، فأشرنا إلى المواقع التي تعرفنا عليها، وبقيت مواقع عديدة لم نتوصل إلى معرفتها، ولعلها اندثرت مع الأيام.

(ب) ولما كان الرجل يعنى بالتجارة لذا نراه يهتم كثيراً بالموازين والمقاييس والنقود المتداولة في أهم المدن التي حل بها، فخصص فصلاً بهذه الأمور عن كل من: بغداد والبصرة ومضيق هرمز، وقارنها بما يعادلها بحساب حلب لأنها منطقة معروفة، وبالبندقية لأنها موطن التجار المحليين.

(جـ) ونوّه أيضاً بالأماكن التي يجب دفع الرسوم فيها، ومقدارها، والهدايا التي يجب على التجار أعدادها وتقديمها إلى رؤساء العشائر وأكابر القوم في تلك المدن لتسهيل أمرهم.

(د) ولهذه الرحلة أهمية جغرافية كبيرة، فقد توسع كاتبها بذكر أسماء المدن والقرى كما أسلفنا، لذلك استفاد منها الجغرافيون ومصممو الخرائط من المعلومات الواردة فيها، خاصة بما يتعلق بالعراق.

(هـ) نلاحظ أن بالبي اقتبس فقرات عديدة من كتاب رحلة مواطنه فيدريجي البندقي الذي سبقه إلى الشرق بأعوام

قليلة، وكان حيًّا يرزق عندما طبع بالبي رحلته، ولا نجد تفسيراً لهذا الأقتباس والنقل الحرفي أحياناً، إلا أن يكون قد وجد نقصاً في بعض مراحل رحلته فالتجأ إلى النقل لملء الفراغ، ولعله استأذن صاحبه ومواطنه فيدريجي.

(و) علينا أن ننظر إلى ما كتبه ضمن الإطار التاريخي عندما كانت تتنافس للسيطرة على العراق قوات غربية حاقدة كانت تعمل على انهاك المجتمع العراقي وتفتت روح المقاومة والتصدي لديه.

طبعات الكتاب

(أ) بعد عودة بالبي إلى وطنه انكب على كتابة أخبارَ رحلته ثم نشرها سنة ١٥٩٠ في البندقية، واضعاً لها عنواناً طويلاً مشوقاً: «رحلة إلى الهند الشرقية للجوهري البندقي كاسبارو بالبي التي تحتوي على ما رآه خلال تسع سنوات بين ١٥٧٩ إلى ١٥٨٨ مع الحديث عن الضرائب والأوزان والمقاييس في كل المدن خلال تلك الرحلة.. البندقية ١٥٩٠، عند الناشر كاميللو بوركومينيري..» وكان الكتاب في ١٥٩ صفحة.

في سنة ١٦٠٥ ظهرت الرحلة بالألمانية في فرانكفورت، وفي السنة التالية نشرت باللاتينية في المدينة نفسها، لأن هذه اللغة كانت مفهومة لدى المثقفين في سائر

بلدان أوروبا في ذلك العهد. ثم ترجمت إلى الهولندية وطبعت في لندن سنة ١٧٠٦ بقطع صغيرة تحتفظ مكتبة المتحف العراقي بنسخة منها.

ثم ظهرت الرحلة مختصرة بالإنكليزية وطبعت في لندن سنة ١٦٢٥ وقد أهمل المترجم القسم الخاص بالعراق.

وطبعت الرحلة مرات عديدة بالإنكليزية والهولندية، لكنه لم يعد طبعها بالإيطالية إلا في القرن العشرين عندما تصدت الباحثة الإيطالية أولغا بينتو Olga PINTO لهذا العمل فنشرت رحلة بالبي مع رحلة فيدريجي بالعنوان الآتي:

Viaggi di C. Federicie G. Balbi alle Indie Orientali a cura di Olga Pinto, Ist. Polig. Dello Stato, Roma Il Nuovo 1932

وطبعت ثانية سنة ١٩٦٢، ضمن سلسلة عنوانها Ramusio IV وقد علقت الباحثة على النص بهوامش كثيرة، معظمها تفيد القارئ الإيطالي، وما أخذته عنها ذكرته بأسمها الصريح. فأني كنت قد صورت هذه الرحلة عن نسخة المكتبة الوطنية في روما سنة ١٩٨٤ ثم علقت على ترجمتها بعد عودتي إلى العراق وانهيت الترجمة سنة ١٩٨٥ وأخيراً قدمتها للطبع في هذه السنة.

(ب) بعد أن فرغت من ترجمة النص، وجدت فيه أموراً عديدة غير واضحة وتحتاج إلى شرح لذا وضعت الهوامش التي رأيتها مفيدة للقارئ.

(ج) إن لغة الرحلة عادية وتفتقر إلى الجمالية، ويكثر بالبي من استعمال التعابير العامية المحلية الدارجة المستعملة في مدينة البندقية.

(د) ذكر الأستاذ كوركيس عواد، رحمه الله، في بحثه المرسوم: «المعرب من كتب الرحلات الأجنبية إلى العراق»، مجلة الأقلام، (١٩٦٤) ص ٥٧ - ٥٨ أن القس (البطريرك فيما بعد) بولس شيخو (ت ١٩٨٩) كان قد ترجم هذه الرحلة إلى العربية تلبية لطلب الأستاذ يعقوب سركيس (ت ١٩٥٩) الذي كان يهتم إهتماماً عالياً بكتب الرحلات الأجنبية ولا أعلم بمصير تلك الترجمة لكن سركيس نوه بأن له ترجمة الرحلة ولم يذكر اسم مترجمها ودعاه «غاصبارو» (مباحث عراقية ٣: ٧٧).

(هـ) ورد ذكر هذه الرحلة في كتاب: «**أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث**» لمؤلفه هـ. لونكريك (ط ١٩٦٨/٤، ص ٣٩٧) وكتابه المعرب: «غاصبارو» وفي كتاب «مباحث عراقية» ليعقوب سركيس ١: ٢٦٥؛ ٣: ٧٦ - ٧٧ وفي كتب أخرى سننوه بها في محلها.

(و) وضعنا للكتاب فهارس متعددة: الأماكن والأعلام... لترشد القارئ إلى أهم مواد الرحلة.

(ز) أسعدنا الحظ قبل سنوات بالتعرف على الأستاذ

المحامي فرحان أحمد سعيد الذي ساعدني للتوصل إلى معرفة أسماء بعض الأماكن المشوه لفظها في الرحلة.

(ح) إن الطبعة الإيطالية للرحلة خالية من الرسوم، أما الطبعة الهولندية ففيها رسوم.

د. بطرس حداد



رحلة
الجوهري البندقي كاسبارو بالبي
إلى الهند الشرقية(1)

---

(1) تبدأ الرحلة في الصفحة ٧١ من النص الإيطالي المطبوع سنة ١٩٦٢.



الفصل الأول

طريق الرحلة من البندقية إلى حلب

لما كانت الرحلة أو الطريق البحري بين وطني أي مدينة البندقية وبين مدينة حلب معروفة جيداً لدى الجميع، ارتأيت إلا حاجة للتوقف عند وصفها لكثرة السفن والمراكب التي تمخر البحر إنطلاقاً من هذه المدينة الشهيرة إلى تلك المدينة الشرقية.

لهذا السبب قررت أن ابدأ بالتحدث عن رحلتي إنطلاقاً من حلب إلى بغداد[1]، ومن ثم إلى الهند الشرقية حتى بيكو[2]. ولكي يكون الوصف واضحاً، ساقسم رحلتي إلى عشرة أقسام أو أبواب، وبهذا نتخلص من أي أشكال يحول دون فهم مراحل سفري.

---

(١) قال في الأصل «بابل» على عادة الرحالة في تلك العهود، وكان السائح الإيطالي ديللافاليه أول من أصلح هذا التعبير وميز بين بابل التاريخية وبغداد. أنظر: رحلة ديللافاليه إلى العراق، بغداد ٢٠٠١، ص ٤٢.

(٢) عاصمة بلد بالأسم نفسه كان ضمن بورما قديماً.

ولهذا أقول: إن الطريق المسلوك عادة، وهو الأكثر أمناً يبدأ من حلب إلى بغداد، ومن بغداد إلى البصرة[١]، ومن البصرة إلى هرمز[٢]، ثم إلى ديو[٣]، ومنها إلى كيافول[٤]، ومن كيافول إلى غوا[٥]، ثم إلى كوجي[٦]، ومنها إلى سان تومي[٧]، ثم إلى بيكو، وأخيراً من بيكو إلى مرتبان[٨].

---

(١) في الأصل «بلصرة» وهو خطأ ردده معظم الرحالين الغربيين.

(٢) حصن مهم في مضيق هرمز كان تحت الاستعمار البرتغالي ردحاً طويلاً من الزمن ثم سيطر عليه الإنكليز.

(٣) ميناء في الهند احتله البرتغاليون مدة من الزمن.

(٤) مدينة في الهند.

(٥) مدينة استعمرها البرتغاليون إلى عهد قريب إذ استعادتها الهند سنة ١٩٦٤.

(٦) هي مقاطعة كوجين بالهند ومن مدنها المهمة مدراس.

(٧) تسمى اليوم ميلابور في الهند، سميت قديماً سان تومي نسبة إلى القديس توما أحد تلاميذ المسيح الحواريين فقد بشر هناك واستشهد وقبره هناك.

(٨) في بورما أو بيرمانيا على حد تعبير بالبي.

الفصل الثاني

وصف الرحلة من حلب إلى بغداد

بدء السفر[1]

أعلم أيها القارئ أني غادرت حلب متوجهاً إلى بغداد في الثالث عشر من شهر كانون الأول سنة ١٥٧٩ مع تجار كثيرين منهم نصارى وآخرون من أتباع الأديان الأخرى. فحملنا الأموال والبضائع على عدد كبير من الجمال والبغال؛ وبعد أن أقمنا كلنا الصلاة[2]، امتطينا الخيول. وفي مساء اليوم الأول وصلنا إلى قرية تدعى «الباب» Bebbe حيث أمضينا ليلتنا الأولى من الرحلة.

في صباح اليوم التالي رحلنا من ذلك المكان قبل انبلاج الصباح بثلاث ساعات وتابعنا سيرنا. وفي المساء

---

(١) أضفت عناوين ثانوية لتسهيل متابعة الرحلة.

(٢) يلاحظ أن السائح كان متديناً فهو يذكر الله سبحانه وتعالى في حله وترحاله، وفي الصعوبات، كما سنرى أكثر من مرة خلال الرحلة.

أرتحنا في مكان هادئ يسمى «ساجور»[1] Saguir، وغادرنا ذلك الموضع في صباح اليوم التالي قبل شروق الشمس بساعتين. وبعد أن سرنا طوال النهار وصلنا إلى «البير»[2] Albir التي تقع على شاطئ الفرات الأيسر، فتوقفنا هناك؛ وقبل أن نعبر النهر لنمضي إلى تلك المدينة، أنزلنا أحمالنا في الجهة اليمنى من النهر وعملنا على تعبيرها بواسطة قارب سبق أن طلبنا إعداده في «بيره جك» لهذه المهمة. ولما لم نكن بمأمن في ذلك الموضع أسرعنا بأكمال هذه الأمور إذ يتوجب علينا الحذر الشديد من اللصوص، ولا سيما أن الليل قد جن، لذلك عبرنا رجالاً آخرين إلى جانب أولئك العاملين معنا من أجل الإسراع في تحميل البضائع، وفي ضوء الشموع حملنا بأسرع وقت أمتعتنا وعبرنا النهر إلى الجهة اليسرى حيث مدينة «بيره جك». وهناك أوقفنا قاربنا عند بيت صاحب القوارب المدعو «مصطفى» الذي تعهد لنا بأن يقودنا إلى موقع آخر يسمى «الفلوجة» يبعد عن بغداد مسيرة يوم واحد.

ما إن توقف القارب عند بيت الرجل، حتى أخرجنا

---

(١) بليدة تقع على الرافد الساجور أو الصاجور.

(٢) وهي البيرة أو بيره جك (معجم البلدان ١ : ٧٨٧) ذكرها الرحالون الذين اتخذوا هذا الطريق للقدوم إلى العراق من أمثال فيدريجي (رحلة: ص ١٦٥) وديللافاليه (رحلة: ص ١٨) وسبستياني وغيرهم.

الخيمة التي كنا قد أعددناها خصيصاً في حلب لتغطية القارب كله من كوثله[1] إلى مقدمته. ولما كان المناخ بارداً فنحن الآن في الخامس من كانون الثاني[2]، لم نستطع تحمل البرد القارس، لذا ابقينا أربعة رجال في المركب يقومون على حراسته نهاراً وليلاً. أما نحن فقد ذهبنا ونزلنا في دار مصطفى حتى يحين موعد سفرنا. وكان الرجل - والحق يقال - مضيفاً ورفيقاً كريماً، فبذل قصارى جهده من أجل راحتنا في بيته، وإعادة الطمأنينة إلى نفوسنا لطرد الأفكار السوداء عنها، لأن الخوف كان قد دب إلى قلوبنا مصحوباً بالقلق في الليالي الثلاث السابقة إذ كنا بين حلب وبيره جك نخشى أن يداهمنا القتلة بين لحظة وأخرى، فقد قيل لنا أن ذاك الطريق خطر ويعج بأعداد كبيرة من اللصوص. وقد بلغنا إذ كنا في حلب قبل أن نبارحها بأربعة أيام أن قافلة محملة بالحرير داهمها اللصوص فسرقوها وقتلوا ثلاثة رجال منها وجرحوا أثنين. لكن ذلك لم يحدث لنا، فدليلنا انكشاري[3] وهو رئيس القافلة، وفي ركابنا عدد

---

(١) الكوثل أي مؤخر السفينة.

(٢) التاريخ مغلوط كما سيظهر بعد أسطر.

(٣) أي الجند الجديد (تركية) لعبوا دوراً مهماً في الدولة العثمانية ودام أمرهم من القرن الرابع عشر حتى سنة ١٨٢٦ عندما تمردوا وطغوا فقضى عليهم السلطان محمود الثاني، وكانوا يعرفون أيضاً بأسم ينجرية. أنظر: =

كبير من المسلمين[1]، المقتدرين.

مساء السادس عشر (من كانون الأول) وضعنا بضائعنا كلها وامتعتنا في مركب مصطفى، ثم ذهبنا لتقديم الهدايا إلى سنجق[2] مدينة بيره جك؛ والهدية عبارة عن أربعة رؤوس سكر، وأربع شموع عسل يبلغ سعر الواحدة شاهياً[3]، والشاهي يعادل في نقودنا عشرين فلساً[4]. كما قدمنا قطعا من صابون حلب. وأعطينا للكتخدا[5] التابع للسنجق رأس سكر واحداً وشمعتين وقليلاً من صابون حلب. وهكذا فعلنا نحو الأمين الذي كان يستوفي الرسوم في ذلك المكان، إذ قدمنا له رأس سكر وقالب صابون[6].

بقينا في ذلك الموضع إلى ٥ كانون الثاني (١٥٨٠)

= د. علي الوردي: لمحات إجتماعية من تاريخ العراق الحديث، جـ الأول، بغداد ١٩٦٩، ص ٢٦٣ وما بعدها.

(١) يستعمل كلمة مورو Moro.

(٢) كلمة تركية تعني البيرق، وتشير إلى منطقة يحكمها سنجق بكي، أو إلى وحدة إدارية تابعة للولاية، وهنا تشير إلى الشخص الحاكم نفسه.

(٣) نقد عثماني صغير، عرف بهذا الأسم لأن السلطان العثماني اتخذ لقب الشاه عند استيلائه على بعض أقسام إيران. العزاوي: تاريخ النقود العراقية: ١٣٤.

(٤) يشير إلى أصغر النقود التي كانت متداولة آنذاك في البندقية Soldo.

(٥) هو الموظف المعتمد في الوحدة الإدارية لمساعدة السنجق.

(٦) الأصح: صحن زبيب كما سترى في المحطات التالية.

منتظرين وصول خمسة مراكب طلبت الرحيل بصحبتنا. وفي مدة الانتظار هذه عانينا كثيراً من البرد القارس والثلوج.

وصف قوارب بيره جك

لما كنا قد تحدثنا أكثر من مرة عن مراكب هذه البلاد التي استعملناها، فلا بأس أن نتوقف قليلاً في وصف طريقة صنعها. وسأخص بالذكر المركب الذي استقللناه في بيره جك.

تصنع قوارب بيره جك[1] من قاع مزدوج الألواح لكي لا تغرق بسهولة في حالة اصطدامها. وفوق هذه الأرض المزدوجة تصف المساند أو العطفات الواحدة غير بعيدة عن الأخرى، ثم تثبت الألواح الخشبية على الجهتين بحيث توضع الخشبة الواحدة فوق الأخرى مسافة أصبع أو أصبعين، ثم يسدون الفراغات بالقطن حيث نستعمل نحن القنب.

لا يستخدمون السارية في هذه المراكب. ويصنعون مقدمتها دقيقة إذ تنتهي بزاوية حادة، على شاكلة القوارب التي نسميها عندنا «بوركيللي»[2] لكن مقدمة هذه أعلى. أما

(١) اشتهرت بيره جك بصنع الشختور (ج: شخاتير) وكذلك هيت. أنظر: موزيل: الفرات الأوسط ص ٥٠.

(٢) هي قوارب تستعمل للتنقلات العادية في قنوات البندقية.

المؤخرة أي الكوثل فتكاد تكون مقطوعة رأسيًا مع شيء من الاستدارة. فهي تشبه مراكبنا التي نسميها «بياتي»[1]. وفائدة الاستدارة هي لإفساح المجال للدفة التي تتكون من قطعة خشب مدورة فيها شق يثبت فيه المردي المصنوع من لوح خشب عريض له نهاية أشبه ما تكون بالرفش[2] وتتم قيادة المركب بهذا اللوح الذي يحركه الربان يميناً وشمالاً، أو قد يسحبه إلى سطح الماء بحسب الحاجة. وقطعة الخشب مثبنة بتوازن، وفي رأسها فتحة كبيرة يدخلون فيه قطعة خشب تمتد من الكوثل حتى منتصف المركب حيث يجلس صاحبه الذي يديره. إنه والحق يقال تصميم غريب، من لا يراه بعينيه لا يستطيع أن يتصور شكله. وهناك في المركب أيضاً خشبتان الواحدة في المقدمة والثانية في المؤخرة تربطان جانبي المركب فتزيدان من متانته، ويجلس عليهما الملاحون على شاكلة السجناء قديماً[3]. أما المجاديف فهي أعواد طويلة وفي آخرها قطعة خشب عريضة مثبتة فيها.

---

(١) هي قوارب مسطحة، أنظر رحلة فيدريجي: ص ١٦٥.

(٢) الرفش ما يجرف به التراب ونحوه، مجذاف السفينة (المنجد).

(٣) كانت الأنظمة القديمة عند الرومان تعاقب المجرمين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة الخدمة في المراكب والسفن للتجذيف على نسق واحد وعلى إيقاع صادر من النقر الرتيب على الطبل.

بعد أن وصلت المراكب التي كنا ننتظرها، وبعد أن أدينا ضريبة مقدارها ١٩ بندقيًا[1] عن كل مركب، فهذا هو الملغ المحدد هنا، تعاملنا مع أربعة ملاحين لتسيير مركبنا لقاء ثلاث بندقيات لكل واحد منهم على أن يوصلونا إلى مدينة «عنه» وأن نتحمل المصاريف الأخرى الواجبة علينا تجاههم.

* * *

(١) من النقود المتداولة آنذاك في البندقية وتسمى Zecchino وأصل اللفظة - على ما يظهر لي - عربي: السكة.



الرحيل

أنطلقنا من «بيره جك» في منتصف النهار، فذهبنا وتوقفنا عند قرية غير بعيدة منها تسمى «كفرى»[1] Caffra وتقع على ضفة النهر اليمنى.

وفي اليوم السادس من الرحلة إنطلقنا من هناك وسرنا طوال النهار، فوصلنا عند المساء إلى موضع يقال له «مكسارة»[2] Cerchis Maxara ويقع على الشاطئ الأيسر من النهر، وقابله على الضفة الأخرى موضع يقال له «جركيس»[3] فتوقفنا هناك بإنتظار المراكب الثلاثة المرافقة لنا التي أرتطمت بقاع النهر بسبب حمولتها

---

(١) ذكرها جيسني (الخارطة رقم ٢) وراوولف في رحلة المشرق: ص ١٠٤ إلا أن المترجم كتبها «كسرة» لتشابه الفاء والسين (بالأحرف الأفرنجية) في الطباعة القديمة.

(٢) لعلها مغارة، تل مغارة عند جيسني.

(٣) أو كركيز كما ذكرها جيسني.

الزائدة، فتوجب علينا إرسال رجل إلى بيره جك لطلب سفينة أخرى لكي نخفف من حمولة السفن المذكورة.

التحقت بنا أخيراً تلك السفن مساء اليوم الثامن من الشهر، وكانت أحداها في حالة يرثى لها لكثرة الماء المتسرب إليها من جراء اصطدامها بالصخور الكامنة تحت الماء. فأسرع ملاحونا يمدون يد العون إلى أولئك الرجال، وأمضوا الليل كله في العمل على إخراج الماء منها. وبعد تعب وجهد كبيرين تمكنوا من اصلاحها وإعادتها إلى حالة مقبولة. وفي تلك الأثناء وصلت سفينتان من بيره جك محملتان بالرصاص ووجهتهما بغداد وكانتا تحت قيادة جاويش[١]، وكان الرصاص مخصصاً لحامية بغداد من أجل صنع العتاد.

ثم قدمت سفينة أخرى كانت تقل شخصاً مهماً برتبة «بيك»[٢] إلى البصرة.

بهذه المناسبة لا بد من التحذير بعدم تحميل المراكب أكثر من طاقتها، فهناك احتمال كبير للاصطدام بالصخور أو بجذوع الأشجار الكبيرة المخفية تحت الماء والتي لا ترى عادة.

---

(١) ضابط من رتبة صغيرة يعهد إليه القيام بأعمال مختلفة (دوزي: تكملة المعاجم العربية ٢: ١٣٢).

(٢) لقب اعتبار إجتماعي أو عسكري (دوزي: تكملة ١: ٥٠٦).

بقينا في ذلك المكان إلى اليوم الحادي عشر من كانون الثاني. ففي صباح ذلك اليوم انطلقنا كلنا معاً لنكمل السفر. وعند المساء توقفنا عند موضع يقال له «تل ويوي» Tell euiui وهو على ضفة النهر اليسرى. تعبنا هناك إلى منتصف اليوم التالي ونحن نعمل من أجل سحب السفن المحملة التي كانت قد انغرزت في الرمال وأصبحت بخطر. وكم بقينا في ذلك اليوم! ومما زاد في تعبنا ذلك المناخ البارد والأمطار والثلوج والرياح!

عند انتصاف النهار انطلقنا من هناك، وتوقفنا عند المساء في موقع يقال له «متاو لنتاكي» Matao Lantache ويقع على الضفة اليمنى للنهر فأمضينا الليل هنا. وفي الصباح، وهو اليوم الثالث عشر (من كانون الثاني) رحلنا من هناك، وبقينا نمخر عباب النهر طيلة ذلك النهار، ثم توقفنا في المساء عند موقع يسمى «قلعة النجم»[1] Calatel negiur وهي قلعة قديمة مهجورة، فاوقفنا مراكبنا عند الضفة اليسرى من النهر مقابل القلعة وربطناها إلى الشاطئ.

في مساء اليوم التالي وصلنا إلى «سوق النصير» Zoxeniasir الواقعة على الشاطئ نفسه. وفي ذلك اليوم

---

(١) قال: قلعة النجور ولعله خطأ مطبعي أو زلة قلم، وقد ذكر الحموي قلعة النجم (معجم البلدان ٤: ١٦٥) ووصفها راوولف وتكلم عن حادثة معاصرة (رحلة المشرق: ١١٢).

اصطدمنا مرتين مع اللصوص فقاتلناهم ببسالة. وحدث ذلك أننا أدنينا مراكبنا من الشاطئ فحاول هؤلاء سرقتها، فأسرعنا وتصدينا لهم بالبنادق والسهام ومختلف الأسلحة المتيسرة عندنا. وبعد هذا الحادث توجب علينا اليقظة خاصة في تلك الليلة لأن أولئك الناس لا مصدر لهم للعيش غير السرقة!

إنطلقنا من ذلك المكان حتى حل المساء فتوقفنا في موضع يسمى «ميسارافي» Miserafi وهو على شاطئ النهر الأيمن. وفي اليوم التالي ذهبنا من هناك إلى قلعة «باليس»[1] Beles التي تقع على الضفة اليسرى للنهر. وكان البرد شديداً للغاية، وقيل أن في ذلك الموضع أناساً قتلة، فأستولى علينا خوف عظيم.

في السابع عشر من شهر كانون الثاني أكملنا الرحلة فوصلنا إلى «بليس»[2] Blis وتقع على ضفة النهر اليسرى، وتكثر في ذلك الموضع القيعان الرملية الضحلة، والموانع الصخرية وجذوع الأشجار المغمورة في المياه. ولهذا تعبنا كثيراً في ذلك اليوم من إنزال البضائع إلى اليابسة تارة وإعادتها إلى السفن تارة أخرى، أو نقلها من هذه السفينة

---

(١) ويقال لها أيضاً بالس.

(٢) أظنه كرر أسم الموقع المذكور سابقاً.

إلى الأخرى عندما كنا نلاحظ أنها في موقع ضحل، لأن سفننا في الواقع كانت محملة أكثر من طاقتها وكان من المفروض علينا أن نخفض من الحمل ولكن ما العمل؟ وبسبب هذا التحميل المفرط تسربت مياه قليلة إلى داخلها، خاصة إلى جوف سفينتنا، وبالرغم من كونها حديثة الصنع، فلم يحل ذلك دون دخول المياه إليها، وحاولنا معالجة الموقف بهمة وإنتباه مستمرين.

لم نرحل من ذلك الموضع حتى صباح الثامن عشر من الشهر نفسه، وفي المساء جئنا ونزلنا في «مليو زراعة»[1] Melíolzura وهو موضع يقع على ساحل النهر الأيمن.

وحدث في ذلك اليوم أننا فقدنا إحدى السفن وكانت بقيادة «خواجا بكر» لأنها اصطدمت بجذع شجرة كبيرة فغرقت، وفقدنا من جراء ذلك حاجيات كثيرة. وفي هذه الأحول أسرعت سفينتان في الجري والابتعاد لكي لا تأخذا شيئاً من البضائع الغارقة، وهكذا فمن السفن الست بقيت أربع في تلك الأماكن الموحشة والخطرة جدًّا لكثرة ما فيها من لصوص ظهروا بغتة وحاولوا التحرش بنا والتقاط المواد الغارقة، لكننا قاومناهم بطلقات نارية من بنادقنا، واستطعنا

---

(١) لا أرى انه أسم موضع بل يشير إلى مكان عامر بالمزروعات ليس إلا والله أعلم!

استرجاع بعض البضائع الغارقة فوضعناها على ما هي عليه في حالة مزرية في قارب كنا أخذناه معنا، وأخيراً بعد جهد جهيد أستطعنا سحب تلك السفينة.

في الحادي والعشرين من الشهر تم إصلاح السفينة ثم سحبت إلى جانب سفننا وحملناها بالبضائع التي كنا أنقذناها من الغرق، ولو أنها كانت أقل بكثير من تلك التي ضاعت في لجج النهر.

رحلنا من هناك في الثاني والعشرين، فسرنا طوال النهار، وعند حلول المساء ذهبنا وتوقفنا في موضع يدعى «قلعة جابر»[(١)] Chalagiabar الواقعة على جانب النهر الأيسر. أما في مساء اليوم التالي فقد جئنا إلى «الحمام»[(٢)] Alaman. وفي مساء اليوم التالي نزلنا في «سوريش»[(٣)] Surlech بعد أن مررنا خلال النهار بحصن يقال له «بلد سوريا»[(٤)] Beletsurie فتركناه وراءنا.

---

(١) هي قلعة جعبر، قال ياقوت: «قلعة جعبر على الفرات مقابل صفين التي كانت فيها الواقعة بين معاوية وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رض)، وكانت تعرف أولاً بدوسر فتملكها رجل من بني نمير يقال له جعبر بن مالك فغلب عليها فنسبت به (معجم البلدان ٤: ١٦٤ و٢: ٦٢١).

(٢) ذكرها معظم الرحالين بأسم أمان أو حمام.

(٣) أو سوريك لدى موزيل وجيسني.

(٤) لعله يعني أرض سوريا.

في اليوم الخامس والعشرين رحلنا حالاً واتخذنا موقعاً لنا على الضفة اليسرى في موضع يقال له «الرقة»[1] التي تقع في أرض منبسطة، وفيها قلعة ضمن حصن. ويحكم الرقة سنجق تركي. فبقينا هناك مدة ولم نغادرها إلى يوم ٢٨ من ذلك الشهر لأن السنجق المذكور أرسل عدداً كبيراً من رجاله مطالباً بحصته من الأقمشة الصوفية. فلما أجبناهم بأننا لا نملك ما يطلبون، شرعوا بقطع حبال أي الحزم بشراسة، والتفتيش فيها لعلهم يعثرون على مبتغاهم، فوجدوا في إحدى الحزم أربعة أطوال قماش أحمر اللون، فأخذوا واحداً إلى السنجق فقص حالاً سبعة أذرع ليصنع منها جبة[2] يرتديها عند ركوبه الحصان، وقال انه مستعد لدفع الثمن الذي حدده بنفسه، وهو أربع بندقيات للذراع الواحد لا أكثر.

وحدث في صباح اليوم التالي انه شرع يطالب باتاوة على الطريقة المتبعة محليًّا، لعله أراد من وراء الحاحه انتزاع طول القماش كله، مدعياً بضرورة دفع ضريبة عن كل السلع التي كنا نحملها على أن تكون النسبة خمسة بالمائة من

---

(١) معجم البلدان ٢: ٢٠١ يتوقف الرحالة راوولف عند وصفها.

(٢) يشير إلى جبة طويلة وعريضة، لكن أكمامها ضيقة وفيها غطاء للرأس كانت تستعمل في البندقية لكن أصلها من الشرق، دعاها في النص «جاربلوكو».

قيمتها، بينما كانت العادة تأدية ١٨ شاهياً عن كل سفينة، مهما كانت تحمل من بضائع. وبعد أخذ ورد واحتجاج التجار كلهم عرباً وأتراكاً الذين قالوا بأن هذا الأمر لم يحدث من قبل، وانه سيلحق بهم ضرراً فادحاً، اقتنع أخيراً بوجهة نظرهم. مهما يكن من أمر فإن الرجل لم يرجع القماش الذي أخذه، ولم يدفع الثمن[(١)].

رحلنا من هناك لئلا تلحق بنا مصيبة أخرى، فنحن غرباء في تلك الديار وليس لنا من يدافع عنا. وفي المساء وصلنا إلى «الحمراء»[(٢)] Elamora وتقع على ضفة النهر اليمنى، حيث أخذنا قسطاً من الراحة في تلك الليلة.

وفي صباح اليوم التالي وهو ٢٩ من ذلك الشهر، واصلنا السفر إلى «أمان»[(٣)] Aman حيث وصلناها عند المساء، فتوقفنا هناك إلى الساعة الثانية من صباح اليوم التالي، لأن سفننا كلها ارتطمت في الرمال في محل مليء بجذوع الأشجار المخفية تحت الماء. ولأن الخوف من اللصوص كان مهيمناً علينا جميعاً لذا عاون بعضنا بعضاً للأسراع في إنهاء العمل والتخلص من تلك المحنة. وفي

---

(١) يحدثنا راوولف أيضاً عن المضايقات التي لاقاها وأصحابه في الرقة (رحلة المشرق: ص ١٢٤).

(٢) ذكرها موزيل.

(٣) لعلها عمران (جيسني: خارطة ٣).

المساء وصلنا إلى «خواجا أبو العيناء» Auagia Abulena وفي مساء اليوم التالي اتينا «القصبة»[1] Casabi وهي على ضفة النهر اليمنى.

في صباح اليوم التالي وهو الأول من شباط، وبعد أن قطعنا ثلاث ساعات من النهار، رأينا قلعة مهملة ومدينة مقفرة تسمى «جلبي»[2] Celibi وتقع على الضفة اليمنى، وبعد قليل وجدنا قلعة متهدمة تسمى «سلبي»[3] Zelebe.

في الساعة ٢٢ من اليوم ذاته مررنا بمحاذاة جبل عظيم كان منظره يوحي إلينا بأنه سيقع علينا بين لحظة وأخرى لأنه كان مقعراً في أسفله، ولم يبق بيننا من لم يجزع من منظره، فالكل في الواقع يخاف على الحياة والمال ومما زاد في خوفنا رؤيتنا كمية كبيرة من الصخور الضخمة كانت قد سقطت في النهر من ذلك الجبل المخيف، وحجارة عظيمة على جوانبه تهدد بالإنهيار لأنها تبدو للناظر عنه وكأنها غير متعلقة بشيء. واستغرقت مدة العبور تحت الجبل نحو نصف ساعة.

عند حلول المساء توقفنا في الضفة اليمنى من النهر،

---

(١) وهي الكسوبي عند جيسني: خارطة ٤ وعند مزيل.

(٢) حلبية، حلبي، زلبي أو جلبي عند جيسني.

(٣) الحلبية والزلبية في رحلة المشرق لراوولف: ص ١٣٩.

فالضفة الأخرى يسرح فيها ويمرح عدد كبير من اللصوص، وقد فهمت بأن هذا الجبل يسمى «الطرف الطويل»[1] Eltoref troull.

رحلنا من هناك صباح اليوم التالي، أي الثاني من شباط، فواصلنا السير إلى منتصف النهار، ومررنا بموقعين منحدرين تكثر فيهما الصخور المتساقطة من الجبل المذكور آنفا ولذلك ارتفع هناك مستوى الماء نحو قامتين بالنسبة إلى يليه[2]. فقبل أن نجتاز من هذه الجهة الأخرى، أي قبل اجتياز المنحدر المائي، رفع كل منا صلاة إلى الله مستمدين العون والمضي في رحلة أمينة. ولقد أظهر الملاحون بالحقيقة إهتماماً بالغاً فحافظوا على إستقامة السفينة. أما السفن الأربع الأخرى. فقد ارتطمت قليلاً بالصخور بسبب حمولتها الزائدة فلحق بها عطل خفيف. وفي المساء توقفنا عند ضفة النهر اليمنى في مدينة تدعى «الدير»[3] Elder وكانت تسمى قديماً «ميناء السلسلة»[4] ويقيم في هذه

---

(١) يذكر موزيل (ص ١٨٣) قرية طريف.

(٢) ذكر المؤلف مقياساً محليًّا يعرف عندهم بالكوع ويساوي نحو ٤٤ سم.

(٣) يريد دير الزور وهي مدينة معروفة وقائمة، ذكرها الرحالين، أنظر: موزيل: الفرات الأوسط، ص ١٥ وما بعدها.

(٤) يرد في رحلة هرتسفيلد (١: ١٦٨) أسم جبل سلسلة سمعه من مرافقه التركي المدعو مصطفى.

المدينة سنجق تركي وقاض. وهي عامرة بالسكان من رجال أشراف ونساء بارعات الجمال لهن بشرة بين بيضاء وسمراء وهن أكثر جمالاً من أي موضع آخر في تلك الأرجاء[1].

(١) لاحظ راوولف أيضاً أن أهل دير الزور «... حسنو الصورة» (رحلة المشرق ١٤٢).



دير الزور

من عادات القوم في هذه المدينة تقديم هدية إلى السنجق والمتقدمين في بطانته. وإلى المسؤولين كافة في البلدة. وعملاً بهذه العادة فقد أرسلنا مساء ذلك اليوم إلى السنجق ثلاثة رؤوس سكر وأثنتي عشرة قطعة صابون، كما أرسلنا عشرين قطعة صغيرة من الصابون وهدايا أخرى إلى الباشوات[1]، مع صحن عامر بالزبيب، وعشرة قطع صابون وقالب سكر. وفعلنا الشيء نفسه للكتخدا إذ بعثنا له قطعتي صابون عن كل سفينة من سفننا. ولقاء هدايانا هذه نلنا التفاتاً كريماً من قبل السنجق، الأمر الذي لم نحظ به في أي مكان آخر خلال رحلتنا في الأيام السابقة.

مدينة الدير هذه كانت تسمى قديماً «ميناء السلسلة» وبقدر ما أستطيع فهمه أن هذا الإسم اتخذ معناه من

---

(١) باشا (فارسية) وتجمع باشوات وبواشية.

الصخور العظيمة التي مررنا بها وتقطع النهر في أكثر من موضع وهي أشبه ما تكون بالحواجز. ومن المؤكد أن هذه الحواجز قديمة، فلقد رأيت في مواضع عديدة من تلك الصخور مسامير مثبتة فيها لها رؤوس متجهة عكس مجرى الماء، وبعض تلك المسامير كانت كبيرة جدًّا. وهي مغمورة تحت الماء بمقدار ذراعين، وقيل لي أن ذلك هو من عمل الأقدمين الذين إذا داهمهم الأعداء في سفن منحدرة مع مجرى الماء تصطدم بهذه الحواجز المخفية ولا بد لها أن تغرق.

ولما كنا قد أدينا ما علينا من رسوم في تلك المدينة، وهي ست بندقيات (وهي العملة كما أسلفنا)، وقطعتين من فئة المويدي[1] عن كل سفينة، لأن هذا هو المبلغ المحدد عن أي نوع من البضائع.

في صباح اليوم الخامس من الشهر المذكور رحلنا من

---

(١) قيل نسبة إلى المؤيد شيخ من مماليك مصر (١٤١٢ - ١٤٢١) ذكرها المقريزي في: كتاب النقود القديمة الإسلامية، تحقيق الأب انستاس الكرملي (القاهرة - ١٩٣٩) ص ٦٣. واختصر الناس هذه اللفظة حتى تشوهت فكتبها بالبي وغيره من الرحالين «مدين» فظن بعضهم أنها أسم نقد (يعقوب سركيس: نظرة في كتاب النقود العربية وعلم النميات) مجلة المجمع العلمي العراقي ١/١٩٥٠، ص٢٩٢؛ بينما أرجعها البعض إلى كلمة معدن أو معدني على قول عباس العزاوي: تاريخ النقود العربية، بغداد ١٩٥٨، ص ١٦٦.

هناك فمررنا في موضع ضيق أو حاجز من الصخور، وكانت المسافة بينها ضيقة جدًّا، حتى أن السفن بالكاد استطاعت المرور بينها، بعد أن لامستها قليلاً من الجانب الأيمن، ولحق بها هناك أذى بسيط لكنه لا يذكر. وأكملنا السير طوال النهار حتى توقفنا عند المساء لنرتاح من السفر في الجانب الأيسر من النهر في موضع يقال له «مواكزير» Muachesir.

برحنا ذلك المكان في صباح اليوم التالي، وفي الساعة الرابعة رأينا مدينة قديمة مهملة واقعة على شاطئ النهر الأيسر وتسمى «البصيرة»[1] Elpisara، وبعد ساعة وصلنا عند نهر يسمى الخابور ويصب في نهر الفرات، أما منبعه ففي مدينة تسمى «ماردين»[2] ويختلف لون ماء هذا النهر عن لون ماء الفرات، إذ يميل قليلاً إلى الحمرة، ويقولون أنه صالح للشرب وصحي.

في الساعة السابعة من النهار رأينا قلعة عن يميننا يقال لها «الرحبة»[3]، وتخضع لسنجق الدير وبقرب تلك القلعة

---

(١) تقع بالقرب من آثار قرقيسية، وتبعد عن دير الزور نحو ٥٤ كلم، أو البسيرة (موزيل ص ٢٢).

(٢) معجم البلدان ٤: ٣٩٠، في تركيا حاليًا.

(٣) وهي رحبة مالك بن طوق ذكرها الحموي: معجم ٢: ٧٦٤ وأنظر موزيل: ص ٢٤.

توجد مدينة متهدمة لا يزال بعض الناس يعيشون في بعض أحيائها تسمى «الرحبة العتيقة»[١].

توقفنا هناك ساعتين لنساعد في انزال حمولة إحدى سفننا، لأنها كانت محملة اكثر من طاقتها زبيباً وتيناً وحديداً. وفي المساء توقفنا عند الضفة اليسرى من النهر، وربطنا السفن بسلاسل قرب موضع يقال له «سوق السلطان» Zoxosuldan.

رحلنا من هذا المكان صباح اليوم التالي، فسرنا ثلاث ساعات حتى وصلنا إلى مكان يقع على يميننا يقال له مدينة «القسارة»[٢] ويحكمها سنجق تركي، أستوفى منا شاهيين عن كل سفينة، فضلاً عن الهدية المعتادة، إذ أرسلنا له صحنا مليئاً بالزبيب، وخمس قطع صابون وجرة خمر[٣]، وأرسلنا للباشا التابع له ثلاث قطع صابون.

في مساء ذلك اليوم وصلنا إلى «كورور» Gorur وهي قلعة واقعة على ضفة النهر اليمنى، وكان الريح معاكسة لنا

---

(١) موزيل: ص ٢٤ - ٢٥.

(٢) موزيل: ص: ٢٦، وذكر جيسني برج القسارة في الخارطة رقم ٤، وكذلك راوولف في رحلته وسماها «شارة» ص١٤٦ وقال المحقق أنها تعرف الآن بأسم «تل الشارة».

(٣) أليس من الغريب والمعيب أيضاً أن يتقبل السنجق التركي جرة خمر؟!

طوال ذلك اليوم وبالرغم من الجهود الجبارة التي بذلها الملاحون فقد كانت المسافة التي قطعناها قصيرة جدًّا، ولم تهدأ الرياح إلا مع حلول المساء.

في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، وهو الثامن من شباط، مررنا أمام جبل جرفت المياه القوية قاعدته، ويقال له جبل «كرتون» Carteron وموقعه على ضفة النهر اليمنى، وكان منظره يوحي إلينا بأنه سيقع علينا بين لحظة وأخرى، لذا انتابنا خوف عظيم خاصة عند رؤيتنا كتلاً كبيرة من صخوره ساقطة في ثلاثة مواقع من النهر. وكان مجرى الماء قويًّا. لكننا أستطعنا التخلص من ذلك المكان بربع ساعة. ثم رأينا أطلال مدينة مهملة تسمى «رومي» Romi. وفي المساء توقفنا عند «حلدجي» Heldegi الواقعة إلى اليمين. وفي مساء اليوم التاسع وصلنا إلى قلعة تسمى «سورة» Sora فأمضينا ليلتنا هناك داخل السفن بعد أن أوقفناها وربطناها عند تلك القلعة. ولا تبعد هذه القلعة كثيراً عن آثار مدينة كبيرة متهدمة واقعة على الجانب الأيسر من النهر فوق تل قليل الإرتفاع مسح القمة. إن أنقاضها الكبيرة تحملنا على الظن بأنها كانت مدينة عظيمة، وفي اعتقادي أنها أكبر بكثير من القاهرة في مصر. وقد فهمت من الملاحين أنهم سمعوا من شيوخهم أن هذه المدينة كان لها ٣٦٦ باباً، وتدعى هذه المدينة

«الأرسي»[1] Elersi، لقد نال منها الخراب كليًّا، ولا يشاهد فيها الآن سوى بقايا أسوارها الضخمة وأبراجها العالية. لقد كانت واسعة الأرجاء بحيث أننا مررنا بمحاذاتها منذ الصباح ولم نستطع أن نترك وراءنا جانباً واحداً من تلك المدينة قبل انتصاف النها، مع العلم أن التيار كان حسناً وكنا نستعمل أربعة مجاديف. إن هذا والحق يقال شيء لا يصدق.

ليس هذا فحسب، فقد أخبرنا أيضاً بالنسبة إلى الأبواب ثلاث المئة والستة والستين، إنه عند كل باب كان يقف قبان[2]، ويعني بلغة البلد الرجل الواقف عند الميزان، وكل قبان يساعده ستة رجال، وما عدا هؤلاء كان في داخل المدينة آخرون لتسهيل عمليات الوزن. من هذا كله يستنتج مدى ما كانوا يتعاطونه من التجارة.

بعد منتصف النهار رأينا على بعد ثمانية أميال من مدينة «الأرسي» أنقاض مدينة أخرى متهدمة ومهملة تسمى «عنقا» Anga وتدل الآثار الباقية على أنها لم تكن كثيرة السكان وواسعة الأطراف، لكنها كانت تملك عدداً كبيراً من

---

(١) ذكرها جبسني (الخارطة رقم ٥) وكذلك راوولف في رحلته: ص١٤٧ لكن المترجم الفاضل ظن بوجود خطأ مطبعي وقال هي بالحقيقة «انفي» أو «أختي» وعلق عليها، وأما موزيل: ص ٣٠ قال «العرضي» وأضاف أن هذه الأطلال تسمى اليوم «الشيخ جابر».

(٢) ذكرها بلفظها العربي.

النواعير، بعضها عند النهر وبعضها الآخر في الداخل. واحصينا عددها فرأينا في الأقل عشرة على النهر وفي الداخل، ومن هذا نستنتج أن الفرات كما هو حاليًا يسير في مجرى يختلف عما كان عليه في الماضي، فتوسع أكثر مما كان في الأزمنة الغابرة عندما كانت تلك المدن مأهولة بالسكان.

في الساعة ٢٢ شاهدنا برجاً في مدينة القائم[١].

وفي الساعة ٢٣ رأينا جهازاً غريباً مكوناً من ثلاث دوائر كان يسحب الماء من النهر ويصبه في ساقية من أجل سقي الحقول[٢].

توقفنا مساء للاستراحة عند ضفة النهر اليسرى، ويقال لذلك الموضع «سيما» Sema، وهناك داهمنا برد شديد طوال الليل.

وفي اليوم التالي وهو الحادي عشر من شباط، بعد ساعة من النهار وجب علينا أن نعبر ثلاث فتحات ضيقة في النهر قريبة من موقع أبنية كبيرة متهدمة، وقد هوت على

---

(١) مدينة معروفة ذكرها الرحالون، وتشير إلى دير القايم الأقصى، والقايم هو برج من مميزات أديار اليعاقبة والملكية على قول الشابشتي (الديارات: ٣٠٣). وقد بقي هذا الدير بحيث نزل فيه هارون.

(٢) يشير إلى النواعير كما عند موزيل: ٣٧.

جانبي النهر، فعبرنا ذلك المكان بإنتباه كبير وقد سيطر علينا الخوف من خطر الغرق في النهر.

بعد قليل رأينا قصراً فخماً يسمى «كابيل جلبي»[1] Capilchelbi، وفي نحو الساعة الرابعة صباحاً رأينا عن يميننا «الروضة فوق الكرمة»[2] Araudi Fochelcurmi، ويوجد بالقرب من هذا الموضع مضيقان لا يقلان خطراً عن المضيق السابق.

عند منتصف النهار وصلنا إلى حصن يقال له «الدير»[3] Eldir ويقع فوق تل جميل على ضفة النهر اليسرى، وبعد قليل توقفنا في موضع يسمى «رقة الميل» Rechtalmel منتظرين هدوء الرياح لأنها كانت تهب عكسنا. وبعد أن أكملنا الإنحدار مررنا بناعورين متقابلين أي الواحد إزاء الآخر، وكانت نحو الساعة ٢٢ ثم أتينا إلى موقع يدعى «زعفران»[4] Zafara.

نهضنا عند الصباح وبارحنا ذلك المكان، فسرنا طيلة النهار، مارين بواحد وثلاثين موضعاً ضيقاً كالذي وصفته آنفاً. وفي الثانية عشرة قدمنا إلى موضع قالوا أن فيه مثوى

---

(١) لعلها أطلال الشكرة التي ذكرها موزيل.

(٢) لا أرى أنها تشير إلى موضع معين بل إلى وصف عام.

(٣) موزيل: المرجع نفسه.

(٤) في خارطة جيسني رقم ٥ يذكر الزعفراني.

أحد الأولياء الذي يلقى منهم الأكرام كما نكرم القديسين في ديارنا. وقد رمى الملاحون في ذلك المزار رغيفاً عن كلّ واحد منهم تقرباً، إذ قالوا: إن قوارب محملة بالقمح مرت من هناك فلم تقدم بحارتها شيئاً للمزار فغرقت حالاً في ذلك المكان[١].

وفي الساعة ٢٣ من ذلك اليوم وجدنا قرية تسمى «الكرخي» Elcuxi وكانت عن يسارنا. وبعد قليل رأينا قصبة مأهولة بالناس تسمى «الميزتانا» Elmesetana حيث أمضينا تلك الليلة.

في الساعة الحادية عشرة، وبعد أن سرنا ثلاث ساعات، مررنا بمنحدر قوي جدًّا هو أخطر ما رأينا حتى الآن[٢]. لكننا نجونا ومررنا بسلام بفضل الصلوات الحارة التي رفعناها إلى الله.

بعد أن عبرنا ذلك المنحدر بدأنا نمر بمواضع مأهولة من بيوت وأبراج ونخيل وبساتين وغير ذلك من الأبنية. وكانت هذه كلها قائمة عند سفح جبل لطيف جدًّا وتقابله في النهر جزيرة صغيرة عامرة بالنخيل وغرسات البرتقال، وكانت على ضفة النهر اليمنى. وبعد مسافة قليلة من

---

(١) إنه مزار الشيخ رجب الرفاعي.

(٢) ينوه راوولف أيضاً بخطر ذلك الموضع (رحلة المشرق: ص ١٥٠).

الجزيرة المذكورة، وعلى الضفة نفسها، بدأنا نساهد بيوتاً وأبراجاً ونخيلاً وبساتين وغير ذلك، ثم جزيرة أخرى تسبه السابقة لكنها أكبر منها، وكانت معظم ضفافها مسورة. ورأينا عدداً كبيراً من سكانها جالسين هناك على الأسور للتسلية.

وما عدا ذلك توجد جزر أخرى مليئة بالأحراش ونباتات الوقود كالطرفاء والعوسج. وهناك بيوت قائمة أيضاً. كما رأينا على اليابسة أعداداً كبيرة من أشجار البرتقال والاترج وسائر الأشجار المثمرة. وبسبب كثرة الجزر والنواعير التي تبلغ أربعة عشر في تلك المنطقة، لذا توجد منحدرات مائية خطيرة جدًّا على الجانب الأيسر من النهر.

بلدة عنه

أما قلعة عنه فلها على شاطئ النهر ثمانية عشر ناعوراً، تؤوي هذه البلدة عدداً كبيراً من قطاع الطرق (كذا)[1].

وهنا لا يسعني إلا أن أذكر أننا من بيره جك، تلك البلدة الصغيرة العامرة بالسلع حيث أخذنا السفن في نهر الفرات إلى هذا الموضع الذي هو قلعة عنه. استغرقت السفرة أربعين يوماً كانت مليئة بالمغامرات والأخطار خوفاً من الغرق تارة، ومن الأغتيال تارة أخرى.

مع العلم أن قطاع الطرق لا يقتلون بل يكتفون بالاستحواذ على المواد ثم يفرون. ولهذا فأنفع شيء لمثل هذه الحالة هو استعمال البنادق لأنها تدخل الفزع في قلوبهم.

---

(١) مع الاعتذار عن مدينة عنه الكرام، وقد قيل: ناقل الكفر ليس بكافر.

أبو ريشة

يخضع هؤلاء لزعيم يدعى «أبو ريشة»[1] الرجل القوي لكثرة الأموال التي ترده عن طريق الأتاوات. هذه المبالغ ليست جسيمة بحد ذاتها، لكنه يستوفي أموالاً طائلة من كل ما تثمره الأرض، كما له حصة في مواليد الحيوانات.

أما الأماكن التي ذكرناها ونزلنا بها لقضاء الليل في الأيام السابقة فمعظمها مقفرة، أو هي أحراش أو غابات أو جبال لا يأوي إليها سوى بعض قطاع الطرق، ما عدا: بيره جك والرقة والدير وقلعة باليس والرحبة، والرحبة العتيقة وعشارة والكوخي والميزتانا والقرى وقلعة عنه، فهذه الأماكن مأهولة وعامرة.

تقوم بجانب حصن عنه مدينة أشبه ما تكون بالجزيرة، فالماء يحيط بها من كل الأطراف إلا من جهة الحصن، وتسمى المدينة أرض ديانا، ويسكن في هذه المدينة أبو ريشة سيد العرب[2].

وقد أقام لإدارتها سنجقاً عربيًّا يقال له «جر علي»[3]؛

---

(١) كتبه السائح «أبو ريزة» Aborise.

(٢) ذكره الرحالون الذين ساروا في هذه الطريق مثل فيدريجي (الرحلة المعربة: ١٦٥) وديللافاليه (الرحلة المعربة: ٣٢، ١٤٨، ١٧٦) ويسمونه سيد العرب أو الزعيم أو ملك العرب والبادية.

(٣) وردت اللفظة في الرحلة بحرف صغير فهي والحالة هذه لا تشير إلى أسم =

أرسلنا إلى الزعيم - أي أبو ريشة -[1] عشر قطع صابون، أما لصاحبه «جر علي» فقد بعثنا إليه ست قطع وصحن زبيب، كما أرسلنا قطعتي صابون إلى أحد حراس «الأمين» وزوجي سكاكين المانية الصنع من النوع المعروف بأسم «سكالا».

تكثر في هذه الأماكن أشجار النخيل والليمون والبرتقال، ويسكن هذه الإنحاء خليط من العرب واليهود والأتراك. كما فيها - على ما قيل لي - عدد غير قليل من شاربي الكحول المدمنين[2]، إذ أنهم يستهلكون في تلك البلدة كمية كبيرة منه[3].

= علم، فتكون صفة أو كنية أم هي خطأ مطبعي؟

(١) لم يتأكد لنا أسم الزعيم من آل ريشة في ذلك العهد. ففي رحلة تكسيرا يرد أسم أحمد (جعفر خياط: مشاهدات تكسيرا في العراق سنة ١٦٠٤، مجلة الأقلام ١٩٦٤/١ ص١٤٨) ويذكر لونكريك (أربعة قرون: ص٥٧) أسم أحمد (أو حميد) في مجرى كلامه عن أحداث سنة ١٥٧٥ فهل هو الشخص نفسه الذي ذكره تكسيرا وقد حافظ على زعامته كل هذه المدة مع أن أخبار هذه الأسرة تشير إلى أن أبناءها كانوا يتقاتلون على الزعامة. وهناك أسم آخر وهو الأمير شديد بن أحمد كما يقدمه الأستاذ فرحان أحمد سعيد في كتابه: آل ربيعة الطائيون. ص١٩٠ وفي هذا الكتاب وصف لطيف لمقر إمارة أبو ريشة. ص١٧٧ وما بعدها. وأنظر أيضاً: زهير العطية: الأعمال الجصية في حوض شمال الفرات، مجلة آفاق عربية ١ (١٩٧٥) العدد ٣ ص٨٠ - ٨٥.

(٢) لم يقل الخمر بل مستقطر العنب، فأرى انه يشير إلى العرق.

(٣) تطرق امرؤ القيس والأخطل وعلقمة إلى خمر عنه في أشعارهم، وأشار =

يحاول بعض الناس دائماً المخادعة، تارة مع هذا وطوراً مع ذاك لإنتزاع الأتاوات، ولا هم لهم سوى الحاق الأذى بالمستطرقين. وفي سبيل المثال: وصل قبلنا إلى هناك مركب أخذوا من راكبيه ستين قطعة من نقود البندقية دون وجه من العدالة. وحاولوا فعل الشيء نفسه معنا لولا وجود بعض الأشخاص المتقدمين في رفقتنا منهم الخواجا سليمان وعثمان مكروس (مغروس، مجروس؟) وهما من أكابر القوم إذ كانا موضع أحتفاء حيثما مررنا، ولولا وجودهما لتلقينا المعاملة نفسها - المهيمنة - في إنتزاع الأتاوات. مهما يكن من أمر فقد أجبرنا على منح الباشا التابع للزعيم قالبي سكر وأثني عشرة صابونة. كما أعطينا الباشا آخر خمس عشرة صابونة، وإلى شيخ المدينة وهو الكتخدا ما يقارب ذلك. عندئذ توقفوا عن الألحاح، ولم يطلبوا أكثر من المعتاد أي شاهيين عن الحمل الواحد من الأقمشة، أو ثمانية عشر من فئة المؤيدي للحمل الواحد، وكذلك عن الوبريات والقماش المسمى موكياري.

في هذا الموقع أبدلنا الملاحين العاملين في مركبنا وفي السفن الأخرى، فأمامنا خمسة أيام صعبة وخطرة. وأتفقنا مع الربان على أن ندفع له تسع شاهيات، وللملاحين

= الهمداني إليها بكونها من المدن المشهورة بخمرها، ووصف الشابشتي كرومها: الديارات، تحقيق كوركيس عواد، ط ٢ (١٩٦٦) ص٢٢٨.

ست شاهيات لكل واحد منهم، فضلاً عن قالب صابون وصحن زبيب لكل واحد منهم أيضاً.

في اليوم الرابع عشر - من الشهر - جاء «الأمين» ليستوفي المكس. فقبل أن يبدأ بعمله أسرعنا فقدمنا له صحن زبيب وجوزاً، وأعطيناه خمس قطع صابون وثلاث صحون زبيب؛ ثم أن كاتب «الأمين» أرسل إلينا على سبيل الهدية سمكتين، فأرجعناه محملاً بعشر قطع صابون - كبيرة - مع قطع صغيرة من المادة نفسها.

ولما كان الخواجا سليمان قد غمرنا بأفضاله في هذا المكان، لا بل خلال الرحلة كلها. لذا قدمنا له عشرين قطعة صابون وصحن زبيب ومشطاً من العاج. فبعث الرجل ساعياً لينبهنا بأن نسرع بالسفر لأن الصوباشي[١] سيأتي بدوره إلينا ليطالب بأربعة أذرع من القماش الأحمر وعشر فيتيم[٢] وغير ذلك مما توحيه إليه وقاحته! لذلك أسرعنا بالرحيل من هناك فإنطلقنا نحو الساعة الحادية والعشرين.

---

(١) صوباشي (تركية) وهو ملازم الجند الذي يؤدي أعمال الشرطة في المدن كمراقبة الأسواق وتعمير الطرقات وما إلى ذلك.

(٢) الكلمة غير واضحة «اتكون» من فئة العشرين؟



الفصل الثالث

تكملة السفر من عنه إلى جبه(*)

غادرنا مدينة عنه، وما أن أبتعدنا عنها قليلاً حتى إضطررنا إلى عبور أربعة منحدرات صخرية حيث يجري الماء بقوة كبيرة، فتملكنا خوف عظيم وفي هذا الموقف الحرج تحققنا من مهارة الربان الجديد ونباهة الملاحين.

أكملنا السير حتى المساء، ومررنا بتسعة مواضع ضيقة جدًّا بسبب وجود النواعير القائمة هناك. أما البيوت فكانت عديدة متناثرة على عدوتي النهر، كما أن تلك الحقول كانت عامرة بأشجار النخيل.

وفي المساء أتينا إلى جزيرة في الفرات تسمى «اناتلبس»[1] Anatelbes حيث لا تزال تشاهد آثار أسوار

(*) ذكر المؤلف رقم الفصل لكنه لم يضع له عنواناً.

(١) وهي جزيرة تلبيس أو تلبس (بدون ياء) ذكرها الرحالون مثل موزيل ص٤٢، وذكرها جيسني باسم اناتلبس. تبعد نحو ١٤ كلم إلى الجنوب من بلدة عنه، كانت قديماً محصنة. طه باقر وفؤاد سفر: المرشد إلى مواطن الآثار =

سامقة إلى عنان السماء، أما شرفاتها فقد تهاوت على الرض. وقد أخبرنا الملاحون أن في ذلك المكان كانت تقوم بلدة كمدن اليابسة لكنها سقطت على أثر زلزال مدمر فطمست أسسها في النهر على الحالة التي رأيناها.

ثم نظرنا إلى الشاطئ الأيسر فرأينا برجاً، وأخبرنا الرجال أن الناس الذين نجوا من كارثة الزلزال الذي ذكرناه قبل قليل قد شيدوا حصناً هناك وسكنوا فيه مدة طويلة من الزمن، لكنه لم يلبث أن تهدم فتركه ساكنوه وتفرقوا.

بقينا هناك بإنتظار إحدى سفننا التي تأخرت في عنه، فأنضمت إلينا في الخامس عشر من الشهر. وفي الساعة الرابعة صباحاً انتقلنا من هناك تاركين على الضفة اليسرى غابة نخل وموضعاً مأهولاً بالسكان وعدداً من النواعير. كما مررنا بمواضع ضيقة في النهر لأنها مسدودة بحجارة، ولهذا السبب كانت المياه تجري بسرعة، وكان الملاحون يبحثون بجهد كبير عن الممر المائي بين تلك الصخور، لأن تلك الممرات كانت ضيقة جدًّا بحيث لا تمر المراكب إلا بصعوبة بالغة ولا مفر من ملامستها الصخور. ولكننا عبرنا تلك الممرات الستة بسلام بعون الله وبفضل مهارة الملاحين، وتخلصنا منها نحو الساعة السادسة من النهار.

= والحضارة، المرحلة الأولى، بغداد - ١٩٦٢، ص ١٩ - ٢٠.

تقوم على الضفة اليسرى من النهر منازل عديدة تسمى «بني يابين» وجزيرة يقال لها «بيجان»[1] Beggian مليئة بأشجار النخيل، ثم رأينا موضعاً يدعى «كبين»[2] Cabin. أما الجهة اليسرى فما رأينا غير الأرض القفراء والجبال الجرداء وبعض أشجار النخيل المتفرقة.

سرنا حتى الساعة ٢٠ مارين بمواضع مأهولة كثيرة على جهتي النهر، وعدد كبير من النواعير وهو ما يدل على أن مساحة كبيرة من الأراضي البعيدة عن النهر هي خصبة.

وبعد قليل رأينا أكواخاً في موضع يدعى «سبرية» Sabrie وهو على ضفة النهر اليسرى، وتلاه بعد قليل موضع مشابه له يسمى «زاوية»[3] أو «زوية» Zoula.

في الساعة ٢١ خلفنا وراءنا جزيرة صغيرة مليئة بالأحطاب التي تستعمل للايقاد كالطرفاء والعوسج، وأسم الجزيرة «زيرة» Zera، ومن بعدها مجموعة أكواخ يقال لها «جيرة»[4] Giera وهناك عدد كبير من النواعير. والموضع التالي الذي يشبهه يسمى «عدلية» Adlelie وبعد مسافة قليلة

---

(١) ذكرها موزيل ص ٤٢، وكذلك جيسني في الخارطة رقم ٥.

(٢) المعاضيدي: أعالي الفرات: ص١٣٢ و١٣٣.

(٣) المرجع السابق: ص١٣٢ و١٣٣.

(٤) أو جرعة أو كورو كما في كتاب: المرشد إلى مواطن الآثار والحضارة ٢٠: ١.

«باصبلية» Bousobileiia وهي عبارة عن حصن مأهول بالسكان، ثم «هذرتا» Ederita و«الجرمة»[1] Germa وكلاهما مأهول ويقعان على الشاطئ الأيسر.

ولما تركنا هذه المواضع وابتعدنا عنها نحو الساعة ٢٣ مررنا بأماكن أخرى في النهر تقدر بأربعين موضعاً وكلها خطرة جدًّا. وفي آخر المطاف قررنا أن نأخذ قسطاً من الراحة في «بينكسي» Benexi وهو موضع مأهول بالسكان ويقع على الشاطئ الأيمن من النهر.

أرتحلنا من ذلك المكان في السادس عشر من الشهر. وفي الساعة الثانية من ذلك النهار مررنا بقريتين الواحدة إزاء الأخرى: فتلك الواقعة على الجانب الأيمن تسمى «ديرة»[2] Dera، أما الأخرى فتسمى «سيميا» Simia. وبعد قليل رأينا على الجانب الأيسر قرية أخرى كبيرة تسمى «جيلمة»[3] Gielma وأخرى شبيهة بها لكنها على الضفة اليمنى ويقال لها «سيا» Sia ثم رأينا ستة نواعير، وقرية أخرى أسمها «الناصرية» Naseria وفيها محلات عديدة وغابات نخيل ونواعير.

---

(١) الجرنة عند موزيل.

(٢) ذكرها موزيل وكذلك جيسني.

(٣) موزيل: المرجع نفسه.

ولما كانت هذه المنطقة عامرة بالقرى والقصبات، ولئلا يصاب القارئ بالملل فسأكتفي بذكر الأسماء فقط دون ذكر مواقعها أكانت على هذه الضفة أم الأخرى. فعلى الشاطئ الأيسر رأينا القرى الآتية: دولل ثم أسب، وبعد قليل مررنا بجبل أبيض اللون، أجرد السفح، ثم: بغيري وجديدة وهما قريتان؛ أما المدن فهي الآتية: فريكا وجديدة ودولب ولولب[1] وتتوسط هذه الأخيرة غابة نخل يقال لها «ستيفا» ومن هناك وصلنا إلى موضع يسمى «دولاب جديد» واسمه يعني موضع جديد.

أما عن اليمين فقد تركنا جزيرتين مليئتين بالأحطاب المفيدة للإيقاد. ولا إسم لهما لأنهما ظهرتا مؤخراً في النهر.

وأكملنا السير فوصلنا إلى قرية واقعة عن اليمين تسمى «زبيدة»[2] ومن ثم جئنا إلى «عراصة» Urasa ثم قرية أخرى تسمى «عامرية» Amerie وتبعتها «البارة» Elbara ثم تركنا هذه القصبة إلى «فوق البيرة» Fuochelbera. بعدئذ قابلنا انحدار قوي في النهر في موضع ضيق، وكان الماء الهادر بين الصخور الكبيرة يجري بسرعة مجنونة. ولمحنا بين

---

(١) دولب أو دويلبة وجديدة (موزيل: ٢٥).

(٢) قصدر زبدة عند موزيل. وعامرية يقال لها اليوم عامرة، والبارة هي بالأحرى البارج على قول الأستاذ فرحان.

الصخور ثلاث أشجار كأنها قامت هناك كعلامة إلى موضع الخطر. وأخيراً تخلصنا لحسن الحظ من هذا المنحدر وذهبنا بإتجاه «أبو شابور»[1] Abusabur وهو حصن يقع على اليسار، ثم مررنا تدريجيًّا بقرى أخرى هي: بنفورة والجديدة والفراشية. ورأينا جبلين هناك أبيضين.

بعد مسافة قليلة رأينا ناعوراً أبعدته المياه عن اليابسة فأصبح في وسط النهر كأنه جزيرة. فالمياه تحيط به من كل جانب. ورأينا أكواخاً يقال لها «شيخ حديد» Segadid وأماكن عديدة كلها مأهولة، وبعض الأبراج وبقايا أسوار على ساحل النهر أي الفرات.

أخيراً وصلنا إلى مدينة تسمى «حديثة»[2] Aditi وفيها قلعة كتلك التي وصفناها من قبل في عنه، وسكانها أكثر عدداً، وموقعها في جزيرة. فمررنا بها وهي على جانب

---

(١) ذكرها موزيل وكذلك جيسني في المرجع نفسه، وكذلك المعاضيدي: أعالي الفرات: ص٢٣٦.

(٢) الحموي: معجم البلدان ٢: ٢٢٣، وهي حديثة الفرات وتعرف بحديثة النورة وبها قلعة حصينة في وسط الفرات. وقد ذكرها البلدانيون العرب. وأنظر: فرحان الحديثي: تاريخ الحديثة، بغداد ١٩٨٩ وهو يتطرق إلى الأضرحة والقباب وما إلى ذلك، أنظر ص١٥٣ وما بعدها. وله أيضاً مقالة في مجلة التراث الشعبي ١٠ (١٩٧٩) العددان الأول والثاني، ص١٠١ - ١١٦.

النهر الأيمن. وبعد قليل أبصرنا جامعاً يقع على قمة تل ويسمى «شيخ ايته» Sechaite.

يوجد في مدينة الحديثة «سنجق» معين من قبل «أبو ريشة» زعيم العرب.

ينتصب مقابل هذه المدينة، على الجانب الآخر من النهر، برج قديم تتناثر حوله القبور على عادة هؤلاء الناس[1].

عند مغادرتنا هذه المدينة توجب علينا عبور ممر ضيق يقع بين سور المدينة والصخور العظيمة المكدسة هناك من أجل دعم ستة نواعير قائمة في النهر مقابل المدينة. وكنا نحرك المجاذيف بصعوبة بالغة في هذا الممر الضيق، فكان إعتمادنا أكثر على مقود المركب. فأسرعنا بالعبور خوفاً من السقوط في شرك يدبره لنا أولئك ولم نتلكأ بإرسال الهدايا إلى باشا السنجق إذ ادّينا له شاهيتين مع ست قطع صابون وصحن زبيب.

في نحو الساعة ٢١ وبينما كنا نجذف في النهر رأينا

---

(١) أخبرني الأستاذ فرحان مشكوراً أن هذا البرج يدعى «ضريح الشيخ محمد» وتتناثر جنوب هذا الموضع قبور قديمة ظاهرة يطلق عليها الأهالي أسم «قبور النصارى» ولم تتم فيها اية تنقيبات آثرية علمية إلى الآن.

بيوتاً كثيرة متناثرة على الضفتين، فضلاً عن أبراج وبساتين وأشجار نخيل.

ثم مررنا بجزيرتين مأهولتين واقعتين على يسارنا، ثم جزيرة ثالثة مأهولة أيضاً وهي خاصة بكتخدا السنجق الذي يحكم تلك المنطقة. وفي نحو الساعة ٢٣ مررنا بجزيرة أخرى فعبرنا بين ناعور يقع إلى اليمين وصخور كبيرة جدًّا كان بعضها مغموراً تحت الماء والقسم الآخر منها ظاهر فوق سطح الماء. وبعد مسافة أخرى رأينا حجارة كبيرة - هي في تقديري - من أجود أنواع الرخام الأبيض.

وبعد أن تركنا خلفنا عدداً كبيراً من الجزر، كان بعضها مأهولاً والآخر خالياً من السكان ورأينا من جديد غابات نخيل.

وعند المساء وصلنا نطلب الراحة في الضفة اليمنى من النهر، في موقع يقال له «جزيرة آلوس»[١] Zezimalus وهي عامرة بالأشجار والدور والأبراج والنخيل الكثيرة.

رحلنا من هناك في السابع عشر من الشهر قبل شروق الشمس بنصف ساعة وبعد أن مخرنا عباب النهر ثلاث ساعات وصلنا إلى موضع يقع على ضفة النهر اليمنى حيث رأينا برجين وثلاثة بيوت. ورأينا على مسافة قصيرة منها

(١) على الفرات قرب عانات والحديثة (معجم البلدان ١: ٣٥٢).

مسجداً قال مرافقونا عنه انه مثوى واحد من أعظم أوليائهم[1]. ولهذا ما أن اقتربنا من المسجد حتى هب المسلمون الذين كانوا في المركب فرفعوا أصواتهم بالدعاء ولم يتوقفوا إلى أن غاب المسجد عن أنظارهم.

ثم خلفنا وراءنا مواضع عديدة حيث يستخرج الرخام، وغابات نخيل، وعدداً من النواعير والبيوت والجزر، ومررنا من جديد بمنحدرات قوية وخطيرة حتى وصلنا إلى مدينة تسمى «جبة»[2] Giuba وتقع في الساحل الأيسر من النهر، وتحيط بها المياه من كل جانب. وهي محصنة بقلعتين في كل جهة منها. بيوتها جميلة مشيدة على الطريقة العربية، وحقولها خصبة، وثمارها وافرة.

هنا يدفعون للأمين شاهيين عن كل مركب، وست قطع صابون فضلاً عن صحن الزبيب.

لم نتوقف في تلك البلدة خوفاً من تدخل السكان بطريقة من الطرق: أكانت بالحيلة أو الدسيسة لإنتزاع شيء من سلعنا. فما كدنا نؤدي المكس حتى أكملنا السفر ونحن نمتع الأنظار بالحقول العامرة ببساتين البرتقال والنخيل.

---

(١) من المحتمل أن يكون هذا المكان هو مقام الإمام الخضر في جزيرة الخزنة. قاله الأستاذ فرحان.

(٢) معجم البلدان ٢: ١٣؛ موزيل وجيسني المرشد إلى موطن الآثار والحضارة ١: ١٨.

وظهر إلى اليسار مسجد «شيخ جبة» الذي له في نفوس السكان مكانة عظيمة وإجلال كبير.

الفصل الرابع

الطريق من جبه إلى الفلوجة(*)

لا أجد ضرورة للتوقف هنا لأذكر التجار الذين يأتون إلى هذه المدينة بأهمية وفائدة أطعام[1] سنجق جبة وأمينة، لأنهما سيقتنعان بسهولة بالاراجيف التي يلفقها المسافرون - ضد الأجانب - فلا بأس من تقديم هدية طيبة خيراً من تحمل أتعاب بغنى عنها.

بعد أن أنطلقنا من هذه المدينة رأينا على جانب النهر الأيسر جزيرة مسورة مليئة بالأشجار المثمرة والأحطاب المفيدة للإيقاد والأشجار التي تصنع من أخشابها دواليب النواعير[2]. وخلاصة القول أن تلك الأراضي كلها كانت مليئة بالتلال الصخرية والبيوت والنواعير. وبعد أن عبرنا

(*) لم يضع المؤلف عنواناً لهذا الفصل.

(١) بمعنى تأدية الخاوة أو الرشوة للموظف، والتعبير للسائح نفسه لكنه لا يزال قيد الاستعمال في الوسط الشعبي.

(٢) هي أشجار الغرب عادة.

منحدراً مائيًا وذلك بعد مضي ساعتين من مغادرتنا «جبة» وجدنا مدينة «ناؤوسة»[1] وهي جزيرة واقعة على ضفة النهر اليمنى. وهناك جبل يقوم عليه مسجد قديم متهدم.

كانت هذه البقعة كسابقاتها عامرة بالبيوت والبساتين والأحراش والنواعير، وتجد حولها جبالاً جرداء ذات لون أبيض. إضافة إلى غابات النخيل الكثيفة ومختلف الدور التي يقال لها «خرائب» Caraib وصفرة Sofera. فلما أوشك النهار على المغيب اتينا نطلب الراحة في موضع يسمى «جارجولا» Giaregiuola ولم نجد فيه بشراً. وفي ذلك النهار مررنا بثمانية وأربعين مضيقاً أو منحدر مياه في النهر!

صباح اليوم الثامن عشر من الشهر غادرت سفينتنا ذلك الموضع تتبعها المراكب المرافقة لنا، فوجدنا أثناء السفر في تلك الأرياف التي كنا نمر بها غابات نخيل ونواعير وجزرات مليئة بأخشاب الوقود وقرى عديدة، منها: زيريزة Ziriza وبسطامية[2] Bostamia وبزينة Bisina والجزيرة Jizira وغيرها لن أذكرها حبًا بالاختصار.

---

(١) محطة قديمة على الطريق من بغداد إلى الرقة ذكرها البلدانيون.

(٢) موزيل ٤٨.

هيت

أخيراً وصلنا عند منتصف النهار إلى مدينة تدعى «هيت»[1] وهي تقع على شاطئ النهر الأيمن، ويكثر فيها اللصوص والقتلة الذين يقال لهم «جزريون» ولهم قلعة قريبة من المدينة المذكورة.

أدينا في ذلك المكان ضريبة كانت بمقدار ما دفعنا في «عنة». ويجبي المكس هنا أمين من أتباع باشا بغداد، رغم أن المدينة خاضعة لزعيم العرب المعروف بأسم «أبو ريشة». ولكي لا يخدعنا الأمين جامع الرسوم بحيله، سبقناه فأجلسناه على بساط وقدمنا له صحن زبيب وجوزاً، وهذه الملاطفة لا تعد إهانة بل بالعكس فقد قابلنا لطفاً بلطف أحسن من أي مكان آخر. ولهذا قدمنا لسنجق المكان نفسه وإلى كتّابه صحن زبيب وخمس قطع صابون صغيرة لكل واحد منهم.

---

(١) معجم البلدان: ٤: ٩٩٧ موزيل: ٤٩.

بارحنا ذلك المكان نحو الساعة ٢١ ومخرنا عباب النهر الجاري في سهل منبسط، وهنا أيضاً رأينا جبلاً يقوم على قمته مسجد جميل جدًا. وهكذا سرنا نمتع الأبصار بتلك التلال والحقول ورأينا أحراش حطب، وأشجار نخيل؛ ومررنا قرب النواعير والأكواخ، ومختلف البيوت المشيدة على ضفتي النهر. حتى جاء المساء فمضينا لنحل في موضع على ضفة النهر اليمنى وكان المكان أشبه ما يكون بالجزيرة.

قير هيت

في الساعة الواحدة ليلاً وصلت إلينا في الموضع الذي نزلنا فيه إحدى سفننا التي أبطأت في السير وبقيت وراءنا بإنتظار بعض التجار الأتراك الذين ذهبوا إلى موضع قريب من هيت لمشاهدة المحل الذي يتدفق منه القير وهو أشبه ما يكون ببحيرة يفور منها القير باستمرار، ومع هذا لم يكن حارًا.

إن سكان تلك النواحي يشيدون بيوتهم من أغصان الأشجار ثم يطلونها بطبقة سميكة من القير حتى يمكن القول بأنهم يقيمون جدرانا مقيرة. وبهذه الطريقة نفسها يصنعون السفن من سعف النخيل ثم يضعون كمية كبيرة من القير فتؤدي الغاية المتوخاة كما لو كانت مصنوعة من الواح الخشب كما نفعل نحن.

بإمكانهم استخراج كميات من القير كما يشاؤون دون دفع أي مبلغ، لأن هذه المادة تتدفق بكميات هائلة بحيث أنهم لا يعرفون ما يصنعون بها.

وأعلم إنه أثناء فوران بحيرة القير ترتفع موجات منه فتجري خارج نطاق البحيرة وتغطي الحقول المجاورة لها. كما تخرج من البحيرة نفسها جداول ماء عذب يصلح للشرب فيفيد البلد.

ويؤكد أولئك السكان أن نهر الفرات عندما يفيض ويتعدى مجراه يجرف كميات عظيمة من القير الموجود في تلك البراري، ولولا ذلك الفيضان لتراكمت كميات هائلة منه ولأصبحت أقرب إلى الجبال الكبيرة.

في صباح اليوم التالي وهو التاسع عشر من الشهر، بارحنا تلك الجزيرة قبل شروق الشمس. وبعد ساعة من الجريان في النهر رأينا جبل رخام على شاطئ النهر الأيمن. وفي ذلك المكان التقينا بقارب من مدينة الفلوجة قاصداً هيتا. إن القارب يستطيع الذهاب إلى هيت لكنه لا يستطيع التقدم أبعد منها بسبب منحدرات المياه التي تحول دون مروره.

أسعار القوارب

ما دمنا نتكلم على القوارب فينبغي أن تعلم أن من

يشتري القوارب في بيره جك قاصداً بغداد، عليه أن يبيعها في هيت أو في الفلوجة. إذ يجب ترك السفن في إحدى هاتين المدينتين، لأن السفن لا تستطيع العودة في النهر بسبب سرعة جريانه خاصة في المنحدرات التي ذكرناها فهي تعوق تقدمها.

أما أسعار السفن فحدث عنها ولا حرج: فأنت تشتري المركب في بيره جك بخمس وعشرين دوكاة (دوقية) وتبيعه في الفلوجة أو في هيت بأربع دوكاة أو خمس لا غير!



تكملة الرحلة

إنطلقنا من هناك لنكمل رحلتنا فلم نجد في تلك البراري المقفرة الجرداء سوى بعض الأحراش هنا وهناك ولا شيء آخر. وشاهدنا بعض الجبال، ومن جملة تلك الجبال رأينا جبلاً عالياً يدعى «مالبين» Maleben يقوم عليه مسجدان. ورأينا في النهر جزراً عديدة، كانت إحداها كبيرة نسبيًّا لأنها قسمت النهر إلى فرعين وتسمى «الخليجي» Elchaligi وليس فيها سوى الأشجار البرية.

ثم رأينا بالقرب من ذلك الموضع تلا ينتصب فوقه برج قديم عظيم البنيان، لكنه متهدم. هناك توقفنا نحو ثلاث ساعات، لأن ريحاً شرقية عاتية هبت علينا في ذلك الوقت فحالت دون تقدمنا.

بعد أن هدأت الريح، وأصبحت الملاحة ممكنة في النهر، إنطلقنا حالاً، فرأينا بعض القصور القديمة المتدمة، لكنها لا تزال محافظة على الشكل والطراز، ويظهر أنها

كانت مسكن أشخاص على شيء من الأهمية. وتسمى «أوسي» Auosi.

كان السهل مليئاً بالأشجار البرية، وتعيش هناك حيوانات وحشية كثيرة كالوعول والخنازير البرية والدببة وما شاكلها.

ولما كانت غحدى سفننا قد سبقتنا لتعد مكاناً نستريح فيه تلك الليلة، لذلك اجتهدنا لنلحق بها. لكن الحظ عاكسنا إذ أرتطم مركبنا باليابسة. وكان الظلام قد لف الأرض فإضطررنا إلى قضاء تلك الليلة في ذلك المكان الموحش والخطر، خوفاً من اللصوص الذين يخرجون في أفواج مكونة من مئة إلى مئتي شخص لنهب السفن. ومما زاد في الطين بلة أن إحدى سفننا التي كانت تسير في أثرنا ارتطمت هي أيضاً بالرمال فلزمنا أن نقضي الليلة هناك، والبنادق بأيدينا ونحن على أهبة الإستعداد لإستعمالها!

رحلنا في الصباح بعد جهد جهيد إذ غادرنا ذلك الموضع لنكمل سفرنا، وبعد شروق الشمس بساعتين ونصف وصلنا إلى أكواخ مشيدة بأغصان الشجر ومطلية من الخارج بالطين ويطلق على ذلك الموضع أسم «قره قول»[1] Caraguol ويتكلم أولئك الناس ثلاث لغات، وهي: العربية التركية والعجمية أي الفارسية.

---

(١) لعله يشير إلى سكني القراغول، أنظر: أعالي الفرات: ص٢٧٨.

الكرود

يسقي هؤلاء الناس حقولهم بطريقة مختلفة عما يفعل الآخرون. فهم يسحبون الماء من النهر بقرب مصنوعة من جلود الماعز أو جلود الحيوانات الأخرى المتوفرة عندهم، مع العلم أنهم يمتلكون حيوانات كثيرة (وجدير بالذكر وجود أسود في ديارهم[١] تزعج الفلاحين كثيراً فيضطرون على حمل السلاح دائماً). ويسحبون القرب إلى الأعلى بواسطة بكرة تدور بقوة الثيران، فعندما تنزل القرب نحو الماء تسير الثيران المربوطة بحبال إلى نقطة معينة حتى ترتفع القربة إلى البكرة حيث توجد ساقية فينسكب الماء فيها، وحينئذ يوجهون الماء إلى حيث يحتاجون[٢].

بعد أن بارحنا ذلك المكان شاهدنا على الجانب الأيسر بيوتاً عديدة متجاورة على شاكلة المدينة، وتسمى «قصور»[٣] Cozzur وموقعها بالحقيقة جميل جدًّا، وأرضها

---

(١) تدل الآثار القديمة على وجود الأسود في العراق كما في آثار نينوى أو بابل وغيرها، وبقيت إلى القرن الماضي أي التاسع عشر، أنظر كوك: بغداد مدينة السلام ١: ٥٣ أحمد سوسة: فيضانات بغداد ص ٢٩٤.

(٢) كاظم سعد الدين: الكرود، مجلة التراث الشعبي ١٠ (١٩٧٩) العدد ١١ ص٨٩ وما بعدها.

(٣) يشير الوصف إلى موقع الرمادي التي وسعها مدحت باشا في القرن التاسع عشر، أنظر: لونكريك: أربعة قرون، ص٣٦٠.

خصبة لأنها غنية بالمياه التي ترويها بتلك الطريقة الغنية التي نوهنا بها.

بعد مسافة قليلة من ذلك المكان، نشاهد على الضفة اليمنى من النهر مسجداً مع منارة[١] ويسمى «مزيات»[٢] Misiat ويقال أن البادية تبدأ من هناك.

في ذلك المساء ذهبنا فقضينا ليلتنا في نهاية أراضي مقاطعة - قره قولي، وهي واسعة جدًّا لأننا صرفنا نهاراً كاملاً في قطعها ونحن نمخر النهر.

إن سكان منطقة القره قول ليسوا أتراكاً ولا عرباً ولا فرساً، وهم في نظر الآخرين أنا لا يتبعون شريعة قويمة، كما ننظر نحن[٣] إلى الهراطقة والوثريين[٤].

---

(١) لم يقل منارة بل قال برج ناقوس لأنه يجهل الأولى وما كتبنا أصح.

(٢) لعله المشهد كما عند موزيل.

(٣) قوله «نحن» يشير إلى الإيطاليين الكاثوليك.

(٤) الهرطوقي (ج: هراطقة) يونانية تعني المنشق عن تعاليم الكنيسة واللوثريون هم اتباع مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) الألماني، صاحب اجتهاد ديني خاص وزعيم ما يسمى بالإصلاح الديني، وكانت حركته على أشدها في ذلك العهد.

الفلوجة

في الحادي والعشرين من الشهر نفسه إنطلقنا منذ الصباح الباكر من ذلك المكان، وعند شروق الشمس رأينا جدولاً[1] يصب في الفرات ومنشؤه في بغداد، وهو صالح للملاحة ولكن بقوارب صغيرة.

وبعد مسافة قليلة من ذلك الموقع وجدنا أحراشاً كثيفة يحتطب الناس منها وقوداً لأهالي بغداد.

وبعد منتصف النهار شاهدنا «الفلوجة»[2]، وقبل أن نصل إليها مررنا بغابات النخيل الكثيفة. وها قد وصلنا بسلام وأمان بعون الله تعالى إلى الفلوجة وذلك في الساعة الحادية والعشرين.

---

(١) إنه نهر عيسى الذي - على حد علمنا - يأخذ من الفرات ويصب في دجلة.

(٢) معجم البلدان ٣: ٩١٥.

لقد تركنا الفرات الذي تكثر فيه طيور الكركي وبنات الماء[١] والبلشون والنورس والبلقشة وغيرها[٢].

يقول العرب - ممن كانوا بصحبتنا - أن فرعاً من الفرات يصب في نهر دجلة قرب البصرة، والفرع الآخر يصب في الخليج لنحدر من ثم إلى هرمز[٣] من جملة الأسماك ويسمى «سمك فراتي» إنه لذيذ جدًّا، وأصلح الأنواع قاطبة. ويصطادون منه كميات كبيرة على ضفتي النهر، فيعتاش منه كلهم: الملاحون والفلاحون على السواء، وكذلك الناس الذين يقال لهم «كرجي»[٤] وهم مسلمون أيضاً، منهم عرب يعيشون على السلب، ومنهم تركمان وهؤلاء لا يسرقون لكنهم يعادون العرب الغزاة.

وهكذا وصلنا إلى الفلوجة. وعندها نفحنا الرجل الذي دق وتداً في الأرض وربط سفننا به أكرامية قدرها أربع شاهيات وثلاث قطع منفئة المؤيدي.

---

(١) ويقال له البيوضي وهو نوع من مالك الحزين شديد البياض له جمة مرغوب بها (معجم الحيوان لأمين معلوف، ص٩٦).

(٢) المرجع نفسه.

(٣) من المحتمل أن يكون هذا كري سعدة فقد كان فرعاً من الفرات يخرج من جنوب هيت ويشق البادية إلى الأخيضر ثم إلى الحيرة ثم مدينة الزبير الحالية ويصب في خور الزبير مباشرة. وهو مندرس حاليًّا (قاله الأستاذ فرحان أحمد مشكورا).

(٤) هل يشير يا ترى إلى الأكراد كما تقترح السيدة بيتو؟ لا أظن ذلك لأنه يقول: «منهم عرب. . . ومنهم تركمان».

الفصل الخامس

وصف الفلوجة حيث نزلنا للإنطلاق منها إلى بغداد وتكملة الرحلة

تبعد الفلوجة عن بغداد مسيرة يوم ونصف، وهي نقطة مرور يفد إليها عدد كبير من التجار الغرباء في طريقهم ذهاباً أو إياباً بين حلب وبغداد، لأنهم ينزلون الأحمال والبضائع في هذه البلدة، ويوسقونها على القوافل أو بالعكس.

الكلك

يصنع أهل هذه المدينة أنواعاً من القوارب أو الأطراف تحملها عشرة زقاق أو قرب، أو أثنا عشر منفرخة بالهواء ومربوطة إلى بعضها. ثم يطرحون فوقها الواح خشب وتحمل كمية كبيرة من البضائع.

لم نفرغ البضائع مساء وصولنا، بل أبقيناها في المراكب حتى انقضى اليوم التالي بأكمله. وفي الليل وصل ثلاثة وعشرون جملاً أتينا بها سرًّا للحميل، وأرسلت رجلين من جماعتي برفقة الجمال المحملة، أما أنا فبقيت في

المركب إلى أن أعادوا الجمال إلي. لقد عملنا بسرية تامة لئلا يشعر الرئيس المحلي بوجودنا لأنه كان هناك لينفذ أوامر سيده جامعاً الأموال لإرضائه[1].

إنصرفنا من هناك خفية في الليل بعد أن اتفقنا مع رئيس القافلة على أن نؤدي له سبع شاهيات عن كل جمل. بينما في أوقات أخرى عندما تكون الجمال كثيرة لا يحتاجها السيد عندئذ تهبط الأسعار فلا يدفع عن الجمل الواحد أكثر من ثلاثين مؤيديًا.



(١) لعله يشير إلى ممثل أبي ريشة دون أن يذكر اسمه.

على مشارف بغداد

سرنا وقبلتنا بغداد، وقد تركت أحد رفاق السفر في الفلوجة لحراسة البضائع المتبقية ريثما ترسل إليه الجمال فيفعل كما فعلنا من قبل. ولما كنت في مؤخرة القافلة لإنهاء عملية التحميل ومن أجل الحراسة، إضطررت إلى تقديم بعض المال والألطاف إلى إنكشاري، وإلى جاويش، ثم إلى أمين البلدة. وهكذا سافرنا من تلك البلدة ضمن قافلة عظيمة.

عند بزوغ شمس الرابع والعشرين من شباط[١]. كنا نعبر جسراً قائماً على فرع من فروع الفرات، وينشأ هذا الفرع عن أزدياد مياه الفرات ويصب في دجلة قرب بغداد[٢]. وفي منتصف النهار اقتربنا من خرائب مدينة

---

(١) أخطأ المؤلف فكتب في النص: كانون الثاني.

(٢) جدول الصقلاوية.

متهدمة يقال لها «السندية»[1] Sendia وبعد نصف ساعة وجدنا في الجهة اليسرى بداية المدينة العظيمة بابل القديمة[2] وتسمى اليوم «فخرية» ,Facheria واستمر بنا السير حتى حل المساء، فأتينا إلى موضع يدعى «ناريسا»[3] Nareisa ويقع في منتصف الطريق الذي يجب قطعه بين الفلوجة وبغداد، وهو مكان خطر جدًّا لكثرة ما فيه من لصوص وأسود!

---

(١) ذكرها ياقوت: قرية من قرى بغداد على نهر عيسى بين بغداد والأنبار (معجم البلدان ٣: ١٦٨).

(٢) ليست بابل، ولكن بعض الآثار التي ترجع إلى العصر البابلي.

(٣) كأنه يريد أن يقول نهر عيسى.

آثار عقرقوف

في اليوم الخامس والعشرين من الشهر، قبل شروق الشمس، عاودنا السير وآثار بابل القديمة لا تزال منظورة دوماً عن جانبنا الأيسر واستمر المنظر حتى غابت عن أبصارنا.

فلما بزغت الشمس أبصرنا كتلاً عظيمة لأسوار متهدمة، ثم شاهدنا كتلة من برج بابل الهائل في موضع يسمى «عقرقوف نمرود»[1].

وإذ أقتربنا من مكان اسمه «مسكدون»[2] Mascadon بدأنا نشاهد مساجد بغداد الحديثة[3]. وكنا قبل ذلك قد مشينا أكثر من نهار كامل قرب موقع بغداد القديمة على

---

(١) للدقة قال في النص «كركوفتاتي نمرو» وأضاف انه برج بابل أعتماداً على ما ورد في التوراة (سفر التكوين ١٠: ٩).

(٢) لعله يريد الإمام موسى الكاظم أو مشهد الكاظم.

(٣) في النص بابل الجديدة أو الحديثة وهي بغداد.

جانب واحد، وهي تنتهي في موضع يقال له «دور القز»[١] Durelcus ويظهر انه كان هناك هيكل عظيم جدًّا - وأقول هذا - بسبب القبة التي تشاهد هناك وهي عالية جدًّا. ولا ريب أننا عند مشاهدتنا مدينة بغداد القديمة وكيف أصبحت خراباً نرى في ذلك أصبع الله[٢].

تظهر الأراضي الواقعة بين الفلوجة وبغداد للناظرين من بعيد جيدة وخصبة، أما في الواقع فلم نشاهد شجرة واحدة أو نباتاً أخضر. لقد كانت مقفرة عقيماً وخراباً في خراب لا بيت فيها ولا قلاع. الشيء الوحيد الذي لاحظناه هناك أن تلك الأراضي تنتج أجود أنواع الفطر[٣]. التي بإمكان إنسان أن يتذوقها، وهي بكميات كبيرة، ولجودتها يستطيع الإنسان تناولها نيئة كما يفعل هؤلاء الناس.

---

(١) أشار ياقوت في كلامه على دار القز أنها: «محلة كبيرة ببغداد، في طرف الصحراء، بين البلد وبينها اليوم نحو فرسخ، وكل ما حولها قد خرب، ولم يبق إلا أربع محال متصلة: دار القز، والعتابيين، والنصرية، وشهار سوك، والباقي تلول قائمة، وفيها يعمل اليوم الكاغد معجم البلدان ٢: ٥٢٢ وكرر ذلك ابن عبد الحق (ت ٧٣٩ هـ/١٣٣٨م) في مراصد الإطلاع: ص٥٠٧ (مادة: دار القز).

(٢) صاحبنا متشبع بأفكار الكتاب المقدس بعهديه، وهنا يذكر ما جاء في نبوة اشعيا ١٤: ١ - ٢٣ وكذلك نبوءات: أرميا ٣٩: ١ - ١٨ ودانيال ١ - ٦ وأخيراً سفر الرؤيا ١٨ - ١٠.

(٣) إنه يشير إلى الكمأة التي تظهر في الربيع.

بعد مسافة قليلة من آثار المدينة القديمة، تشاهد الأطلال الشاخصة لقلعة تسمى «قلعة جاموس» وبالقرب منها خمسة مساجد، ثلاثة في هذه الجهة من الطريق التي نسلكها، وأثنان من الجهة الأخرى.

بعد منتصف النهار بساعة وصلنا إلى «دار الرقيق»[١] Rwchiche ويقع هذا الموضع على نهر دجلة مقابل بغداد الجديدة[٢]. ومن أجل الذهاب من دار الرقيق إلى بغداد لا بد من عبور النهر على جسر من الخشب المثبت فوق سبعة وثلاثين قارباً (جسارية) مصنوعاً على شاكلة قواربنا التي نسميها بور كيللي أي العوامات التي تنقل الطين. وقوارب الجسر هذه مربوطة إلى بعضها.

إتخذنا لنا منزلاً في - منطقة - دار الرقيق ريثما ننجز معاملة إخراج بضائعنا من الكمرك.

ومن أجل إختصار الأمور التي رويناها حتى الآن، ينبغي أن تعرف - أيها القارئ - أن الرحلة من حلب إلى بيره

---

(١) كتبها الرحالة «ركيكة» وأظنه يشير إلى دار الرقيق وهي محلة كانت ببغداد متصلة بالحريم الطاهري من الجانب الغربي (معجم البلدان: ٢: ٥١٩).

(٢) يتكرر في الرحلة أسم بغداد الجديدة للإشارة إلى بغداد المعاصرة للمؤلف ولا علاقة لهذه التسمية بالحي الحديث المعروف بهذا الأسم أو كما يسمى اليوم «حي الخليج».

جك استغرقت مدة ثلاثة أيام، وكانت في الطريق البري ضمن قافلة حتى وصلنا الفرات. ومن بيره جك إلى بغداد أمضينا تسعة وأربعين يوماً متواصلاً، ويرجع سبب هذا التأخر إلى أن الفصل كان شتاءً فالحق يقال أن هذه السفرة كانت تتم بوقت أقصر لو جرت في غير هذا الفصل من السنة.

انفقنا في الطريق من مدينة حلب إلى بغداد سواء للرسوم أو للهدايا أو الرشوات ما هو مدون أدناه بإختصار، ما عد مصروفنا الخاص للمعيشة.

المصاريف من حلب إلى بغداد

للجمال من حلب إلى بيره جك: ٦٠ مؤيدي عن الحمل الواحد، مع العلم أن المؤيدي القرش[١] الذي يساوي أربعة فلوس من نقدنا[٢].

أحمال البغال	٤٥ مؤيدي للحمل الواحد
مصاريف المكس في بيره جك	١٠ مؤيدي للحمل الواحد
منحة للأمين	٤٠٠ مؤيدي
اتاوة إنتزعها القاضي	٢٠٠ مؤيدي
ثمن أربعة صحون زبيب وعشرين قطعة صابون	٣٥ مؤيدي

---

(١) يشير المؤلف إلى عملة كانت متداولة في البندقية أسمها GROSSETTO سكها الدوق بارباريكو (١٤٨٦ . ١٥١١) ومنها جاء القرش.

(٢) إنها عملة تساوي الفلس أسمها Soldo وهي من الفضة، وعلى قول السيدة بيتو كانت تزن في القرن السادس عشر ٠,٤٤٠ غم.

للقوارب عدد ٣٠ على ٣٥	
بستين دوكاه	٢٤٠٠ مؤيدي
لاطعام الرجال	٢٠٠ مؤيدي
للمكس في الرقة	٥ مؤيدي عن الحمل
ثمن ٣ صحون زبيب	
وصابون عدد ٢٥	٢٥ مؤيدي
حقوق الملك أبو ريشة	
٢٠ دوكاه	٨٠٠ مؤيدي
للمكس في الدير ٥ دوكاه	٢٣٠ مؤيدي
ثمن ٤ صحون زبيب وصابون	
عدد ٢٠	٣٥ مؤيدي
للمكس في عشارة	١٠ مؤيدي
ثمن صحني زبيب وصابون	
عدد ١٠	١٧ مؤيدي
للمكس في عنه	١٠ عن كل حمل
ثمن ٤ صحون زبيب وصابون	
عدد ٢٠	٣٥ مؤيدي
للمكس في حديثة	١٠ عن كل قارب
ثمن صحني زبيب وصابون	
عدد ١٠	١٧ مؤيدي

للمكس في هيت	١٠ عن كل حمل ثمن ٤
صحون زبيب وصابون	
عدد ٢٠	٣٥ مؤيدي
ثمن الهدايا في الفلوجة	٣٠ مؤيدي
أجرة الجمال من الفلوجة	
إلى بغداد	٣٠ للحمل الواحد

هذه هي النفقات التي تصرف عادة من حلب إلى بغداد، دون أن تدخل ضمنها مصاريف الطعام الخاص بنا شخصيًّا. وأعتقد في ما ذكرت الكفاية لهذا القسم من الرحلة ولنأت الآن نتحدث عن مدينة بغداد.



الفصل السادس

وصف بغداد والسفر إلى البصرة

بغداد الحديثة التي يسميها الأتراك «بجياديت»[1] Bagiadet لها من بعيد منظر خلاب رائع الجمال شبيه بمنظر دمشق، لأن القادم من السفر يراها من بعيد للوهلة الأولى وهي راقدة بين أحضان البساتين الخلابة والجنائن الغناء، تحيط بها الأشجار المثمرة. وما يزيد من بهاء منظرها قباب المساجد المزخرفة باللون اللازوردي!

إنها مدينة كثيفة السكان بالرغم من أنها ليست كبيرة جدًا. وتجري فيها الأعمال التجارية بكثرة لبضائع الأجانب، لأنها ممر مهم إلى بلاد العرب، وإلى تركية،

---

(١) لا أعلم من أين أتى المؤلف بهذا الأسم، كما أورد غيره من الرحالين الفاظاً أخرى لعاصمتنا، فقالوا: بكدات وبكديت وبلداك وبلداكو وغيرها فضلاً عن تسميتهم لها في معظم الأوقات «بابل» إلى أن جاء الرحالة الإيطالي ديللافاليه في مطلع القرن السابع عشر فميز بوضوح بين بابل التاريخية وبغداد العربية، أنظر الهامش (٢).

وإلى بلاد فارس، وإلى سائر الأقطار. ومما يؤيد كلامي كثرة القوافل التي تمر بها يوميًا، إذ تدخل إليها وتنطلق منها في مختلف الإتجاهات.

تزودها أرمينية بأنواع السلع التي تنقل إليها على نهر دجلة، فتصل حتى أسوار المدينة فوق أطواف (أكلاك) مصنوعة من الواح خشب مربوطة إلى بعضها فوق زقاق جلود الماعز بعد أن تنفخ بالهواء وتربط معاً إلى بعضها. فمتى وصلت هذه الأطراف إلى بغداد، تنزل البضائع منها وبعدئذ تفك الألواح وتباع في السوق المحلي. أما الزقاق فتفرغ من الهواء وتحمل على الجمال لتعاد إلى مصادرها الأصلي.

تقع هذه المدينة ضمن الحكم الفارسي[1]. لكنها منذ زمن وإلى الآن تخضع للحكم التركي[2] وللمدينة قسم مقابل في الجانب الآخر من النهر، أي الجهة التي تواجه

---

(١) إن معظم الرحالين الأجانب قسموا العراق على أن الأراضي غرب الفرات هي البادية وشرق الفرات دعوها بين النهرين، أما شرق دجلة فأرض فارس، والجنوب الأرض العربية. وإنطلاقاً من هذا التقسيم الغريب الذي يشير إلى جهل المؤلف وأمثاله، قال بالبي ما قال أعلاه. أو لعله يشير إلى إستيلاء الفرس على بغداد في غفلة من الزمن فعاثوا في عاصمتنا فساداً.

(٢) استعاد العثمانيون بغداد سنة ١٥٣٤م، جمادى الآخرة ٩٤١هـ.

بلاد العرب[1]. فهناك حصن أو محلة تدعى «دار الرقيق» وهي عامرة بالدور والفنادق[2] والمخازن حيث يحل القسم الأعظم من التجار الأجانب الذين يأتون إلى المدينة. وعندما يريدون مغادرة ذلك الحي للدخول إلى المدينة في الفصل الذي تزيد فيه مياه النهر بسبب كثرة الأمطار، عندئذ يضطرون إلى قطع الجسر في وسطه ويسحبون قسماً منه أمام سور المدينة، أما القسم الآخر فيترك عند شاطئ ذلك الحي. وفي هذه الحالة يعبرون النهر بالقوارب بخطر كبير جدًّا، لأنها قوارب صغيرة تنقلب في كثير من الأحيان فيبتلعها النهر الهادر، وتسبب الموت لاناس عديدين[3].

قلعة بغداد

في الجهة اليسرى من المدينة توجد قلعة على شاطئ النهر لحماية المدينة، وفيها عدد كبير من المدافع من النوع المسمى «الصقر»[4]. وفي القلعة جنود. وهناك قلعة أخرى

---

(١) يشير على الكرخ.

(٢) استعمل الكلمة بلفظها العربي، أما المخازن فتشير أيضاً إلى الدكاكين أي الحوانيت، أو الخانات.

(٣) لقد نقل صاحبنا وصف بغداد من رحلة فيدريجي. أنظر مجلة المورد ١٨ (١٩٨٩) العدد الرابع، ص١٦٥ - ١٦٦.

(٤) قالت بيتو أن هذا النوع من المدافع انتشر استعماله في القرن الخامس عشر.

داخل المدينة نفسها[١] وهي حديثة البناء، جميلة جدًّا، تقوم في وسط ميدان منبسط، وتمتد أمامها ساحة فسيحة جدًّا. يقيم في القلعة الباشا، أي حاكم المدينة[٢]، وله فيها عساكر كثيرة من السباهية[٣] والانكشارية[٤] وغيرهم.

وفي المدينة عدد كبير من الحمامات مطلية من الداخل بالقير عوض الجص، ويبلغ عددها نحو ستين حماماً.

نشاهد في المدينة آثاراً كثيرة يعتقد أنها منقولة من بابل القديمة، رغم أن كل ما يشاهد فيها هو قديم ما عدا القلعة التي ذكرتها التي يسكن فيها الباشا.

وهذا يكفي عن مدينة بغداد.

(١) هي القلعة الداخلية التي كانت تسمى بالتركية «ايج قلعة» شيدت في أواخر حكم القره قوينلية في الموقع الذي تقوم عليه اليوم وزارة الدفاع على دجلة.

(٢) وهو آنذاك الوالي علي باشا الوند (١٥٧٤ – ١٥٨٦م).

(٣) وهم الجنود الخيالة النظامية (فارسية).

(٤) سبق شرح ذلك في الهامش ١٨.

الفصل السابع

وصف برج نمرود القريب من بغداد

يبعد برج نمرود عن بغداد اكثر من ثمانية أميال ويقع في هذه الجهة من نهر دجلة. وهو في سهل فسيح يمتد نحو بلاد العرب. وقد أصابه الخراب كليًّا فأصبح ركاماً أشبه ما يكون بجبل. رغم ذلك لا تزال كتلة كبيرة منه قائمة لكن الأنقاض غطتها تقريباً.

شيد هذا البرج بحجارة[1] مجففة بحرارة الشمس، وبطبقات من القصب التي لا تزال قوية جدًّا إلى اليوم. ويبلغ محيطِ البرج نحو ميل واحد.

يترك هذا البرج إنطباعاً يختلف عن سائر الأبنية فتلك بقدر ما يقترب المرء منها بقدر ذلك تظهر اكبر حجماً. بينما هذا البرج يظهر عظيم الشأن من بعيد وعند الإقتراب منه يصغر تدريجيًّا. وسبب ذلك انه لا يوجد حواليه أي شيء

---

(١) هكذا في النص والأصح باللبن أو الاجر.

كبير أو مرتفع ما عدا حجارة انقاضه. ثم لأنه يقع في سهل واسع الأرجاء[1].

والآن بعد أن تكلمت عن المدينة وعن برج بابل، أرى من المناسب أن أقول شيئاً عن الموازين والمقاييس المستعملة في بغداد. ثم أتكلم عن النقود المتداولة فيها حاليًّا، وأنوه أخيراً بالرسوم التي تستوفي عن كل نوع من البضائع.



(١) نقل المؤلف هذا الوصف عن رحلة فيدريجي في المرجع المذكور في الهامش ١٤٢، ص١٦٦.

الفصل الثامن

الموازين والنقود والمقاييس في بغداد

الموازين

المن البغدادي يساوي في حساب حلب رطلا وخمس أوقيات ونصف، وان ٦٨ منا وثلاثة اسباع المن تعادل قنطاراً حلبيًّا أي ١٠٠ رطل، وتساوي في حساب البندقية ٧٢٠ ليبرة بندقية صغيرة[١].

القنطار البغدادي وقوامه مئة رطل يعادل أربعة عشر رطلاً حلبيًّا وسبع الرطل. وهذه تساوي ١٠٥٢ ليبرة زائداً أوقيتين صغيرتين بحساب البندقية. هذا هو القنطار!

ولكن من الضروري أن تعلم أن التجار عندما يتحدثون في أمور التجارة فإنهم يتعاملون بالمن وينقصون من أوزان

---

(١) الليبرة الصغيرة أو الضعيفة في حساب البندقية كانت تساوي ٠,٣٠١ كغم، أما الليبرة الكبيرة أو السمينة فتساوي ٠,٤٧٧ كغم (قالته السيدة بيتو).

السلع حسب نوعيتها على طريقة حلب، فلكل شيء حدوده الخاصة[1].

المقاييس

أما مقاييس المدينة المذكورة فهي عادة الذراع. وهنا أيضاً يختلف مفهوم القياس بين حلب وبغداد، فالذراع البغدادي يقل عن ذراع حلب بنسبة ١٨ بالمئة. أي أننا لو أخذنا مئة ذارع في بغداد فهي ستحسب هناك ٨٢ ذراعاً حلبيًّا.

النقود

أما نقود مدينة بغداد، فالمتداولة فيها هي: الشاهي وتساوي خمسة مؤيديات. مع العلم أن هذه الفئة الأخيرة تسك محليًّا على حساب أن الدوكاه تساوي أربعين مؤيديا.

السلطانية[2] والبندقية الذهبية الواحدة تساوي ٤٧ مؤيديا.

البياسترا[3] الواحدة تعادل ٣٣ مؤيديا.

النقد البندقي والريال الاسباني تباع بالوزن، كذا سعر

---

(١) شرح السائح غير واضح لقارئ اليوم لكني نقلته بحذافيره.

(٢) نقد عثماني يساوي الدوقة أو الدوكاة البندقية.

(٣) نقد عثماني عرف بأسم القرش أيضاً واختلفت قيمته على مر الزمن.

عن كل مئة درهم[1] إذ ليس لها سعر ثابت ومعروف[2] وعندما يتكلم التجار في شؤون المال فإنهم يعنون أن كل مئة مثقال تعادل ١٥٠ درهما بوزن حلب.

أما في حساب دار السكة البغدادية فيأخذون النقود الأجنبية على حساب مئة الدرهم ويدفعون خمسة مؤيديات أقل من السعر الساري في البلد عن الوزن المذكور نفسه أي مئة درهم، وبعد أن يحول المبلغ إلى شاهيات يدفعَ على مدى أربعين يوماً.

الرسوم

إن المكس في هذه المدينة يدفع على الطريقة الآتية، أكان عند الوصول إليها أو حين مغادرتها.

تستوفي ٦ بالمئة عن كل أنواع البضائع.

أما عن المرجان والعنبر فبنسبة ٥,٥ بالمئة.

الأقمشة الآتية: خام لندن، الأحمر صنع شنتو[3]،

---

(١) الدرهم هنا لا يشير إلى النقد بل إلى الوزن.

(٢) هذه الفقرة نشرها الباحث يعقوب سركيس في مقالته: نظرة في كتاب النقود وعلم النميات، في مجلة المجمع العلمي العراقي ١ (١٩٥٠) ص٢٩٢ وكذلك في كتابه مباحث عراقية ٣: ص١٧.

(٣) بلدة صغيرة في إيطاليا اشتهرت منذ العصور الوسطى بتجارة الأقمشة (قالته بيتو).

الديباج، الأقمشة الوبرية، الأجواخ والحرير، العتابية[1]، الأطلس والدمشقي والمخمل والحرير المقصب. كلها بنسبة ٥ بالمئة لكنهم يحاولون دائماً التقدير بسعر أعلى من ثمن البضائع الحقيقي.

كما تدفع للطواف[2] والبواب والكاتب ستة مؤيديات عن الرأس أو عن البالة أي الحزمة، ويكون الدفع نقداً. والأول بين هؤلاء أي الطواف هو الذي يعنى بفتح الحزم وشدها ونقلها أمام موظف الكمرك والنظر في محتوياتها. أما الثاني وهو البواب فإنه يفتح باب الكمرك ويغلقه ويكنس المكان ويحافظ على نظافته.

كما يمنحون عادة أمين المال في سبيل المجاملة ثلاثين شاهيا، فإن امتنع أحدهم عن دفع هذه الدراهم،

---

(١) النسبة إلى محلة في بغداد كان يصنع فيها ضرب من الثياب المخططة المتموجة وعرفت بهذا الأسم نسبة إلى عتاب بن اسيد الذي ينتهي نسبه إلى أمية بن عبد شمس... وقد سكنت ذريته في هذا الحي وتسمت بأسمها واشتهرت بصناعة المنسوجات.

لسترانج: بغداد في عهد الخلافة العباسية، ص١٢٢ - ١٢٣ صلاح حسين العبيدي: الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي، بغداد ١٩٨٠، ص٥٤؛ مصطفى جواد وأحمد سوسة: دليل خارطة بغداد، ص ١٠٤.

(٢) أستعمل الكلمة العربية في النص وسيشرحها بعد أسطر.

ستحدث له مفاجأة غير سارة عند إستعداد المركب للإقلاع إذ سيهبط عليه الأمين بحجة التفتيش عن العملات التي لا يجوز إخراجها من البلد، وبهذه الحجة يعمد إلى فتح الأحمال من جديد فيقلب عاليها سافلها والعياذ بالله!



الفصل التاسع

السفر من بغداد إلى البصرة

بعد أن أدينا ما علينا من رسوم، وقدمنا الهبات والهدايا التي اعتادوا على تقديمها إلى مسؤولي بغداد، وبعد أن أمضينا في هذه المدينة بضعة أيام. أخيراً توكلنا على الله وقررنا السفر، فحملنا بضائعنا وأمتعتنا في اليوم الثالث عشر من شهر آذار سنة ١٥٨٠ على متن سفينة مزدوجة (مدرعة!) لأن كل السفن التي تنحدر إلى البصرة هي من هذا النوع، أي أنها مبطنة من الداخل بطبقة سميكة مثبتة بمسامير ضخمة تمنحها قوة كبيرة جدًا، وفي هذا المجال يجب أن تعرف أن أهل بغداد لافتقارهم إلى الخشب فإنهم يصنعون السفن من الواح المراكب القادمة من بيره جك، لأن هذه المراكب - كما أسلفنا - عندما تصل إلى الفلوجة تفكك أوصالها وتباع.

وصف المركب

يصنعون السفن هنا في بغداد بكوائل منخفضة على شاكلة السفن التي نسميها في البندقية «بياتي» أي المسطحة، لكن صدرها - أي مقدمتها - مرتفع على شاكلة سفننا المحلية التي نسميها «بوركي». وتصنع الدفة من أخشاب النخيل بعد ربطها إلى بعضها بحبال، وتبعد القطعة عن الأخرى أربع أصابع ونيفا ليمر الماء من الداخل والخارج في كل الإتجاهات.

إن الرجال الذين يجذفون في السفن لا يجلسون على المقاعد في داخل المركب بل على تلك المقاعد المثبتة في الجوانب حيث يحركون المجاذف حتى أنهم عندما يعملون يكاد نصف أجسامهم تميل فوق الماء.

ويصنعون هنا نوعاً ثانياً من المراكب يشبه تلك التي ندعوها «كريبي»[١] لها دعامة في صدرها، أما دفاتها فهي شبيهة بتلك التي ورد وصفها سابقاً وتنشر أشرعة هذه المراكب على شكل مصلب[٢] كما نفعل نحن في قواربنا

---

(١) مركب تجاري بسارية واحدة سريع الجريان يحمل عادة كميات كبيرة من البضائع (تعليق بيتو).

(٢) أي أن تماس السارية بحاملة الشراع يكون على شكل صليب.

المسماة «المربعة»[1]، وفي الواقع أن أشرعتها مربعة الشكل تقريباً لكن النهاية السفلى أعرض بقليل من النهاية العالية، ويرجع السبب في ذلك إلى طول الحبال. ويربط رأس الشراع بخشبة مثبتة بالصدر، وبهذه تغطى المقدمة كلها ويمتد الشراع من جهتي المركب إلى الخارج أكثر من نصف قدم.

أما المجاذف فإنها تشبه الرفش[2] المتصل بعصا طويلة نوعاً ما. لكن الأخشاب كلها: أكانت السارية أم المجاذيف أو حاملات الأشرعة هي أخشاب غير مستقيمة وبها أعوجاج ظاهر.

تكملة الرحلة في دجلة

بعد أن حملنا البضائع مساء الرابع ليلة الخامس عشر من الشهر المذكور (آذار) بدأنا السفر في دجلة متجهين جنوباً لأن غايتنا كانت البصرة. فمخرنا النهر طوال الليل بقوة المجاذيف. وعند بزوغ الشمس رأينا على الضفة اليسرى من النهر مدينة مقفرة تدعى «إيوان كسرى»[3].

ما أجمل نهر دجلة!.. في رأيي انه يشبه النيل،

---

(١) لأنها مربعة الشكل (بيترو).

(٢) سبق شرحه في الهامش ٢٨.

(٣) يشير إلى المدائن والموقع معروف.

ولا خطر فيه للإرتطام باليابسة أو بالمضائق أو بجذوع الأشجار كما كان يحدث في نهر الفرات. ولهذا سفرنا آمنين طيلة النهار، ولم نشاهد شيئاً يذكر إلا في الواحدة صباحاً إذ رأينا مسجداً.

كانت ضفاف النهر عامرة بالنخيل أشبه ما تكون بالغابات. كما لاحظنا وجود عدد كبير من الخنازير البرية التي كانت تتقدم من النهر لترد الماء.

بعد أن تركنا وراءنا قريتين متهدمتين، قيل أن الأولى تدعى «جديدة» Zadide والأخرى «كرد» Chert وأصلنا السفر طوال الليل، ولم نشاهد شيئاً يذكر سوى خيام الرعاة العرب تحيط بها حيواناتهم بأعداد كبيرة.

صباح اليوم السادس عشر وجدنا في الساعة الواحدة من النهار قرية مأهولة بالسكان تدعى «دولاب» Duleb وكانت واقعة على ضفة النهر اليمنى، وهناك بالقرب منها جزيرة في وسط النهر مليئة بالأحطاب المفيدة للإيقاد وتسمى «ياسونة» lassune.

العمارة (كوت العمارة)

أكملنا سيرنا على هذه الشاكلة إلى المساء. وفي الساعة الثالثة ليلاً وصلنا إلى موضع يقع على عدوة النهر اليسرى ويسمى «العمارة» Elmara ويقوم على إدارته سنجق.

يتوجب علينا أن ندفع له ثلاث دوكاه (دوقية) عن كل مركب من مراكبنا.

ينقسم دجلة في هذا الموضع إلى قسمين: يجري الأول متجهاً إلى البصرة، بينما يختلط الثاني بجدول يدعى «شط الجوالز» Settigiualez الذي يصب في آخر المطاف بنهر الفرات[1].

تابعنا سفرنا فوجدنا النهر بعد قليل أضيق جدًّا من قسمه السابق، ولاحظنا أيضاً أن الريف الواقع على ضفته اليسرى كان مأهولاً باناس يدعون «كرجا»[2]. أما على ضفة النهر اليسرى فهناك العرب الذين يعيشون في خيام متناثرة في البادية هي بيوتهم الطبيعية. ويستفيد العرب من ساقية ممتدة من النهر تصل إلى حصن يدعى «الكرجيلاوية» Gurigielauia ومن هناك تجري في أراض صحراوية.

في الساعة ١٨ وصلنا إلى «كير» Cher وهو موضع يديره «سنجق» أيضاً، ويطالب بدوره بدوكاتين (دوقيتين) عن كل مركب يمر من هناك.

توجد في أطراف هذا المكان أسود كثيرة تشاهد عند

---

(١) شط الحي أو شط الغراف. نوه بهذه الفقرة يعقوب سركيس: مباحث عراقية ١: ٢٦٥.

(٢) هل أراد أن يقول كردا؟

نزولها إلى النهر لترتوي[1]. إن النهر في هذه المنطقة أعرض بقليل من نهر «برينتا»[2].

عادات البدو

أذكر القارئ على سبيل الفائدة بأن تلك المناطق يكثر فيها الأعراب الذين يعيشون على الغزو ويقيمون في الغابات ويتسلحون بأنواع مختلفة من الأقواس والسهام التي تنتهي برؤوس حادة شبيهة بتلك المستعملة عندنا التي نطلق عليها أسم «زكاليا». فيحومون حول السفن ويجعلون منها هدفاً لسهامهم حتى تجبر على التوجه إلى البر لتصبح لقمة سائغة لهم. لكنهم بالطبع يخافون كثيراً من البنادق، لذلك لم يتقربوا من سفنتا.

في تلك المناطق التي مررنا بها يكثر فيها الرعاة الذين لهم قطعان الماشية من ثيران وخراف وماعز وسائر الحيوانات الأليفة الأخرى، رأينا كل ذلك وكما شاهدنا خيامهم التي يسكنون فيها.

في الساعة ٢٣ وصلنا إلى موضع يدعى «عين قصر» Encaerami حيث يوجد ضريح أحد أوليائهم[3]. فأراد

---

(١) أنظر الهامش ١٠٨ وكذلك مباحث عراقية ١: ٣١٣.

(٢) نهر بإيطاليا ينبع في تيرول ويصب في بحر الادرياتيك قرب البندقية.

(٣) لعله يشير إلى علي الشرقي.

ملاحو سفننا الخمس التعبير عن أكرامهم له فرموا في الماء خبزاً وتمراً للأسماك على سبيل الصدقة.

كان الهواء حتى ذلك الوقت حسنا خلال سفرنا كله، سواء في الفرات، أم هنا في دجلة. ولكن أعتباراً من هذه المنطقة هبت علينا من النهر رائحة غريبة كتلك التي نشعر بها في البندقية في حي «مارغيرا»[1] وكانت بالحقيقة مزعجة جدًّا[2]. أضف إلى ذلك أننا إذ كنا نسير ليلاً هبت ريح قوية على الشراع فدفعت السفينة إلى أحد فروع النهر الهادر حيث توجد لجج خطيرة لم يتتبه إليها الربان بسبب ظلام الليل الدامس. وإذا بنا ضحية ريح عاتية ومياه جارفة قاتلة فتملكنا خوف رهيب إذ أوشكت السفن أن تتحطم فتصبح لقمة سائغة بيد اللصوص. ومن المؤكد أن نهايتنا باتت قريبة لو لم تسرع لنجدتنا السفن الأخرى التي بقيت خلفنا ولاحظ ركابها الورطة التي وقعنا بها، فأسرعوا ورموا لنا الحبال وخلصونا من ذلك المأزق.

تحط قرب الماء في تلك النواحي أعداد كبيرة من طيور النورس والبلقشة والسمان فتغطي المناطق القريبة من هناك.

---

(١) محلة في البندقية الماء فيها عفن لقلة حركته.

(٢) أرى أن الريح المزعجة تهب من الأهوار.

في نحو الساعة الثالثة نهاراً من اليوم التالي، أتينا إلى موضع جميل جدًّا وهو القرية[1]، ويديره سنجق، وهناك يصب نهر يدعى «نهر مروان» Maroan ينبع من أطراف فارس ويجري بسرعة عالية حتى انه يعمل على توسيع النهر في هذا الموضع.

توجد قرية أخرى مقابل القرية التي ذكرناها وتسمى «كوركاب» Corcab وموضع مأهول آخر يسمى «سكر» Socher. وهنا يبدأ النهر بالتوسع قليلاً متأثراً بعامل المد والجزر كما يحدث في البحر عندنا. فمياه النهر ترتفع لمدة ست ساعات ثم تعود فتهبط ست ساعات أخرى وذلك بفعل الموجات الصاعدة من الخليج القريب من هناك.

بعد قليل من ذلك الموضع توجد قرية مأهولة تسمى «الكارر» Elcharer وتقابلها قرية أخرى متهدمة تدعى «قلعة التل».

القرنة

يجب الإنتباه كثيراً إلى السفن أعتباراً من هنا، لأن ماء البحر في مده يسعى للدخول على النهر، ففي هذه الحالة يجب إيقاف السفن، وعلى ما يروي الملاحون انه بقدر ما

(١) لم يكتب أسمها في الأصل.

تندفع السفن إلى الأمام بقوة المجاذيف، ترجع إلى الوراء بقوة المياه المتصاعدة من جراء المد.

كان الريف القريب من هناك مأهولاً بالسكان. وكانت تسرح فيه - على ما قيل لنا - في الأزمنة الغابرة خيول ذات شعر أخضر وعيون صفر[1].

كانت تطير فوق مراكبنا في هذا المكان أسراب هائلة من الذباب الأبيض، وكان لسعها أشبه بوخز الزنبور، بل كوخز الأبر. كم كانت مزعجة ومضرة في الوقت نفسه.

توقفنا في ذلك المكان حتى الساعة الثالثة ليلاً، لأن المياه كانت تزداد بفعل مد البحر؛ ولما رحلنا أخيراً من هناك نحو منتصف الليل، وصلنا إلى مدينة تسمى «القرنة» التي يديرها سنجق يستوفي ٢٥ شاهيا عن كل مركب يمر من هناك، وشاهيين عن كل حمل ما عدا الثياب الوبرية (الأجواخ) والمخملية، إذ يطلب عن كل حمل أربع شاهيات. ولقد توقفنا هناك إلى الساعة الثالثة من نهار اليوم التالي وهو ٢٠ آذار.

رحلنا من هناك، وبعد مسافة غير بعيدة رأينا فرعاً

---

(١) لعله ينوه بالحمار الوحشي المسمى الاخدر والاخدري (أنظر معجم الحيوان لمعلوف: ص٩٨). أو إنه نقل رواية شعبية سمعها من المسافرين.

للفرات يتحد بدجلة[1] وقد شيد في الموضع حصن للحراسة يسمى «سير سيز اوزاكا»(؟) Sersisauzaca ويقيم فيه عدد كبير من الجنود لملاحقة السراق الذين يجوبون تلك المنطقة بمجموعات كبيرة قوام كل مجموعة منها مئة شخص وغايتهم السطوا

في تلك الأثناء دخلنا في عرض النهر الفائق الجمال إذ توسعت جوانبه في تلك المنطقة حتى أصبح شبيهاً بنهر النيل. وكانت المناطق على جانبيه مأهولة بالناس، فالبيوت كثيرة والأرض خضراء.

المناخ في هذه المنطقة حار جدًا في بعض فصول السنة، قد يؤدي بحياة بعض الناس الضعفاء. وقد علمت شخصيًا أن أربعة أنفار كانوا في سفر فأضناهم التعب والحر فجلسوا يستريحون قليلاً وإذا بهواء حار هب عليهم أدى إلى موتهم بالاختناق. لهذا السبب شيدوا هناك مسجداً يقال له «منصور بني صعب».

بعد مسافة قصيرة رأينا جزيرة كثيرة السكان تسمى «ابن النمر» وبالقرب منها جزيرة أخرى يقال لها «جزيرة الأرمو».

---

(١) وردت هذه الفقرة في كتاب «الأقليم الوظيفي لمدينة القرنة» تاليف عبد الحسين جواد السريح، ص٢١٤ (بغداد ت ١٩٧٧) والترجمة غير موفقة.

السكان

دعني أتوقف قليلاً لابين كيف يستخدم هؤلاء السكان آلة لطيفة جدًا يصطادون بها كميات وافرة من السمك، وما هذه الواسطة سوى قصبة محددة الرأس لا غير[1].

يعيش هؤلاء الناس حياة هانئة لكثرة ما عندهم من الحنطة. وجدير بالذكر أن حبة الحنطة هنا كبيرة تفوق الحجم الاعتيادي؛ ويرجع سبب ذلك في ظني إلى أن حقولهم فسيحة وواسعة جدًا، ولذا فبإمكانهم الزرع في حقل ارتاح مدة طويلة منذ الحصاد الأخير، قد تطول هذه المدة إلى ١٥ أو ٢٠ شهراً. ففي هذه الحالة يعطي مثل هذا الحقل ثمراً جيداً. لهذا السبب نرى تلك المناطق عامرة بالسكان والدور.

كما يزرعون هناك الرز بكميات كبيرة أعتباراً من هذه المناطق وإمتداداً إلى حدود مدينة البصرة.

بعد أن سرنا حتى الساعة ٢٣ وصلنا إلى حصن يقال له «المناوي»[2]. وفي هذا الموقع يستوفون الضريبة من تجار العبيد.

أكملنا رحلتنا بقوة الشراع طيلة ذلك الليل فرأينا قرى

(١) أظنه يشير على الفالة المنتشر استعمالها في الأهوار وما يليها.

(٢) هي القلعة الفاصلة بين البصرة وشط العرب.

مأهولة وقلاعاً على عدوتي النهر. وفي صباح اليوم التالي قبل شروق الشمس بثلاث ساعات رأينا في الجهة اليمنى قناة عريضة بمقدار رمية حجر[1]. ودخلنا في تلك القناة وسرنا حتى الساعة الثانية من يوم الحادي والعشرين من شهر آذار (١٥٨٠) فوصلنا إلى مدينة البصرة.

(١) إنه نهر المعقل.

الفصل العاشر

وصف البصرة

بلصرة[1] أو كما يقال لها البصرة، مدينة واقعة في بلاد العرب، وهي تحت سيطرة الأتراك حاليًا، لكنها كانت من قبل بقبضة العرب الذين يقال لهم «الجزريون» الذين يمتلكون الآن بلداً واسعاً حيث لا تصلهم يد الأتراك، لأن منطقتهم تخضع لعامل المد والجزر ومعظم أراضيهم تحيطها المياه فتصبح عند المد أشبه بالجزيرة بل قد يغمرها الماء. لهذا السبب لا يستطيع الجيش النظامي التوغل فيها لا عن طريق الماء ولا عن طريق اليابسة.

وسكان هذه المناطق هم رجال قتال، لذلك يتوجب على الأتراك أبقاء حامية كبيرة في البصرة تكلفها نفقات باهظة[2].

---

(١) راجع الهامش ٤ من هذا الكتاب.

(٢) هذا الوصف نقله بالبي على ما يظهر من رحلة فيدريجي المار ذكرها، مجلة المورد ١٨ (١٩٨٩) العدد ٤ ص١٦٦.

تبعد هذه المدينة عن البحر نحو خمسة عشر ميلاً. وهي مدينة واسعة التجارة بالتوابل والعقاقير ومختلف السلع الأخرى التي تردها عن طريق هرمز، وفيها وفرة من التمور والرز والقمح، وكلها تزرع في المنطقة نفسها. لكنها تشكو من شحة المياه العذبة. فمن يرد أن يشرب ماء طيبا عليه الذهاب مسافة نصف نهار ليرد الماء الزلال. أما الأشخاص الذين يشربون ماء النهر فتصيبهم الأمراض، لأن النهر يجرف معه كمية هائلة من الأوساخ بسبب أن أهل تلك البلاد يسمدون الأرض بالبراز البشري. فعندما يفيض النهر يجرف كمية كبيرة من تلك الأقذار وهو ما يجعل طعم الماء أجاجا وفوق ذلك يؤثر في الهواء أيضاً فيجعله مزعجاً ورديئاً وتكثر من جراء ذلك أعداد هائلة من الذباب والبراغيث والبق ومختلف الحشرات الضارة والمزعجة.

رسوم المكس

تدفع الرسوم في هذه المدينة على حساب ستة بالمئة، فضلاً عن ما يحاول «الأمين» إنتزاعه عنوة عندما يفتح الحزم ويقلب البضائع. لذا فالأفضل منحه مقدماً مقداراً من المال، وكذلك الباشا، وهو ابن جيكالا قائد مسينا[1] ذاك

(١) شيبيوني جيكالا (١٥٤٥ - ١٦٠٥) المعروف في المصادر العثمانية بأسم جغالة ازاده يوسف سنان باشا، وهو أبن فسكونت جيكالا في صقلية من -

الذي لم يتورع عن أخذ بعض الثياب مدعياً شراءها على حسابه، وكان ثمنها يبلغ نحو ٦٢ من فئة الدراهم البندقية.

وخلاصة القول أننا عوملنا في هذه المدينة بخشونة فائقة أكثر من أي بلد آخر، ولكانت أمورنا أتعس بكثير لولا حماية اسكندر الآغا[١] التابع للباشا الذي أكرم مثوانا سواء عند الباشا أو في الكمرك، وفي الأماكن الأخرى إلى أن أبحرنا إلى هرمز. وأضاف الرجل إلى حسناته حسنة جديدة عندما علم عن طريق الباشا خبراً وصل إليه آنذاك ومفاده أن بعض القراصنة المدعوين «نوتيكي»[٢] ينهبون البضائع ويقتلون الناس ويغرقون السفن. وكانوا بأعداد كبيرة في تلك الأيام ينشرون الرعب في تلك الأطراف. فلما علم الرجل - أي الآغا - بهذا النبأ أسرع فأخبرنا ونصحنا بعد الاقلاع حتى أشعار آخر. لذا بقينا هناك بسبب هؤلاء القراصنة.

= جارية تركية. أسر وهو صغير السن فتربى في بلاط سليمان الأول وخدم خلفاءه وتسلم مسؤوليات كبيرة منها توليه بغداد. أنظر كلشن خلفا ص٢٠٩؛ رحلة ديلافاليه ص١٧٩ - ١٨٠.

(١) الآغا (تركية) هو السيد أو الموظف في إحدى دوائر الدولة.

(٢) هم قراصنة كانوا يلاحقون السفن في الخليج قضى عليهم الإنكليز سنة ١٨٠٩ (قالته السيدة بيتو).

تجارة الهنود في البصرة

في السادس والعشرين من آذار تعرفنا على بعض التجار الوثنيين من الذين يقال لهم «أهل بنيان»[1] قدموا من مدينة تدعى «كمباجا»[2] وهي مدينة وثنية أيضاً. ويتناول أهلها عادة الرز والخبز والحليب، ولا يتناولون أكثر من وجبة واحدة في اليوم. وهم لا يأكلون لحوم الحيوانات من أي نوع كان، بل ولا يقبلون بذبحها، وإذا وجدوا البراغيث أو الحشرات الأخرى فإنهم يضعونها على ورقة ويطلقونها في الجو. وأكثر من ذلك كله أنهم عندما كانوا في البصرة ورأوا الأهالي يصيدون الفئران عمدوا إلى شرائها واطلاق سبيلها!

هؤلاء القوم لا يطلقون لحاهم أي أنهم يحلقونها، أما بالنسبة إلى الشوارب فمنهم من يطلقها ويحرص على أن تكون عريضة وكثة، وبعضهم لا يهتم بها البتة. لكنهم يتركون شعر رؤوسهم ينمو ويطول جدًّا ويلمونه تحت الشاشية[3] الصغيرة التي يغطون بها رؤوسهم. وأخيراً

---

(١) مقاطعة في الهند (كوجرار) اشتهر سكانها بالصيرفة وتعاطي التجارة، حتى عم أسمها على كل التجار الآسيويين.

(٢) يقال لها اليوم كامبي وهي على البحر.

(٣) غطاء للرأس انتشر إستعماله في العراق قديماً. أنظر: دوزي: المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة د. أكرم فاضل، بغداد - ١٩٧١، ص٢٠٠.

يرتدي هؤلاء الناس القماش الموصلي الأبيض، وثيابهم طويلة جدًّا لذا يجمعون اذيالها عند الصدر.

لغتهم خشنة على الطريقة الهندية، ولهم سحنة سمراء، لكنهم ليسوا سودا.

عندما يتوفى أحدهم يقوم ذووه بحرق جثته. وما يتبقى من رماد جثمانه يذرى في النار والهواء والقسم الباقي يوارى في الأرض، لأنهم يعتقدون أن الإنسان مكون من أربعة عناصر، ولذا يجب أن تسترجع هذه العناصر حصصها منه بعد الموت.

في السابع والعشرين من آذار قطع الباشا بحد السيف رقاب ثمانية من هؤلاء البنيانيين لأنهم شتموا الدين الإسلامي.

بعد أن تكلمت ما يكفي عن عادات البصرة وتقاليدها، وعن موقعها، يليق بنا أن نقول شيئاً عن الموازين والمقاييس المتداولة فيها.



الفصل الحادي عشر

الأوزان والنقود والمقاييس
في مدينة البصرة

الأوزان

المن الواحد في البصرة يساوي في حلب خمسة أرطال وأوقيتين وثلثا. وإن تسعة عشر منا وربعاً يعادل القنطار الحلبي المكون من مئة رطل، أي في وزن البندقية ٧٢٠ ليبرة بندقية.

القنطار البصري الذي يتكون من عشرين منا، يعادل ١٠٤ أرطال حلبية، وهو يساوي ٧٤٨ ليبرة بندقية زائدا ٩ أوقيات بندقية أيضاً.

ولكن من الضروري أن تعرف: إن التجار عندما يتباحثون فإنهم يتعاملون بالمن، وينقصون من أوزان السلع لكل مَنّ بحسب النوعيات وبحسب التعامل المحلي.

المقاييس

أما مقاييس هذه المدينة فتجري بحساب الاذرع، وهي

- أي الذراع - بالنسبة إلى أذرع حلب تقل بنسبة ١٨ بالمئة كالمقاييس المستعملة في بغداد بالضبط.

النقود

إن نقود هذه المدينة هي الفلوس[١] النحاسية الكبيرة، وهي شبيهة بعيار الزيت في البندقية[٢] ويطلق عليها أسم «الاستيني»[٣]، وأن ١٢ منها تساوي مؤيديًا واحداً، وكذلك في حساب حلب، وتعادل أربع صولديات[٤] من نقودها.

إن المؤيدي هو نقد من فضة شبيه بالصاد[٥] المتداول في هرمز، ويحمل نقشاً تركيًا[٦] على وجهيه. إن قطعتين من

---

(١) استعمل المؤلف كلمى فلوس [المعروفة].

(٢) قالت بينتو: هي قطع معدنية مثلثة الشكل كانت توضع في براميل الزيت وتجمع في الكمرك ويتم دفع المكس على قدر عددها، فهي ليست من النقود لكنها في الاستعمال الشعبي صارت تعبر عن قيمة نقدية.

(٣) Estinni هي نقود فارسية (بينيتو) أقول: لم أجد لها في الكتب العربية التي بحثت في النقود التي كانت تستعمل في العراق ككتاب الأب الكرملي والأستاذ العزاوي والباحث يعقوب سركيس.

(٤) صولدو (ج: صولديات أو صولدي) من نقود البندقية.

(٥) الصاد والسادي والساندي والسندل (فارسية) تعني مئة وهي عملة كانت متداولة في هرمز والبصرة وتساوي ١٠٠ ديناراً (بينيتو).

(٦) نقش أو ختم ولعله الطغراء، وقوله تركي يعني إسلامي أو عربي لأن الغربيين كانوا يستعملون كلمة تركي للإشارة إلى المسلمين بصورة عامة.

فئة المؤيدي تساويان دامينا[1] واحداً. ويساوي في حساب حلب مؤيديا وبحساب البندقية ثماني صولديات.

والدامين المذكور هو من النقود الفضية ويشبه القرش[2] لكنه أكبر منه، مع نقش تركي على وجهيه وأن اثنين ونصفاً منه يساويان شاهية واحدة وكذلك في الحساب الحلبي أي شاهية واحدة وبحساب البندقية ٢٠ صولدية بالضبط.

هذه الشاهية شبيهة بمثيلاتها في حلب، وأن شاهية واحدة زائداً ٢٠ استينا تساوي لارينا[3] واحدا، وبالحساب الحلبي ستة مؤيدات ونصف وأربعة فلوس، وبحساب البندقية ٢٦ صولدية زائدا ٨ باكاتيني[4].

---

(١) الأصح دنيم (ده نيم) وهو نقد فارسي يعادل عشر المحمودي، قال سركيس «دهنيم» أي من العشرة واحد (مقالته المذكورة في الهامش ٥٨ ص٢٩٢) أما العزاوي فقال مصححاً سركيس: «وصوابه نصف العشر» (تاريخ النقود العراقية: ١٦٦).

(٢) من نقود البندقية سبق شرحه في الهامش ١٣٥.

(٣) قال العزاوي: «من النقود الشائعة في الأحساء ونجد ما يسمى بالطويلة.. هو نقد معدني. ذو علاقة بالنقد المسمى در ازد هكاني ص٣٤ من هذا الكتاب (أي كتابه) وقد بطل استعماله» انتهى قول الأستاذ، ورجعت إلى ص٣٤ فلم أجد أي شرح هناك. مهما يكن من أمر فقد ورد شرح هذا النقد في دائرة المعارف الإسلامية في مادة «طويلة» للمستشرق الآن.

(٤) نقد بندقي من النحاس انتشر في القرن ١٥.

إن اللاري المذكور هو نقد غريب المنظر حقا، فهو ليس مدوراً كسائر النقود. إنه قطعة سميكة من الفضة يبلغ سمكها بقدر ريشة الأوز التي تستعمل في الكتابة، وطولها نحو نصف الربع[1]. حافات أو رؤوس القطعة مطوية من جميع جهاتها إلى النصف (إلى منتصفها) وتجتمع في (نقطة) واحدة حيث توجد الكتابة التركية (أو الختم؟).

هذه اللاينات هي على نوعين: فبعضها ضرب في بلاد الأتراك ولذا فهي تحمل الختم التركي (العثماني) والكتابة التركية وبعضها الآخر يسك في هرمز وعليه ختم ملك تلك المدينة. وأول من بدأ بسكه كان ملك اللر[2] الذي كان عاهلاً قديراً ضمن بلاد فارس وهو شاه عباس اغتصب معظم أراضي مملكته، ولم يترك له غير بلد صغير واقع على البحر. وهذا الملك يضمر عداوة للبرتغاليين لأنهم على علاقة حسنة بغريمه ملك هرمز.

تعد اللارينات أفضل النقود المتداولة في طول الهند وعرضها. وإن ست لارينات تساوي بندقيًا واحداً، وتساوي بالحساب الحلبي ٤ مؤيدي، وبالحساب البندقي ٨ ليرات.

البندقي الذهب أو بالأحرى السلطاني يساوي ٧

---

(١) أي ربع الذراع البحري (بينيتو).

(٢) ياقوت: معظم البلدان ٤: ٣٥٥.

لارينات ودانيما واحدا، وبحساب حلب ٤٨ مؤيديا ونصفا وأربعة فلوس وبحساب البندقية ٩ ليرات وأربعة عشر صولديا أو صولدية وثمانية من النقد الصغير[١].

يباع النقد البندقي بالوزن: كل ١٠٠ مثقال منه بثمان وثمانين لاريا وتساوي ١٥٠ درهما[٢] حلبيًا.

يجب الإنتباه إلى أن التجار عندما يتعاملون بالنقود فإنهم يتحدثون عن فئة مثقال التي تعادل ١٥٠ درهما - بعيار - حلب كما سبق أن أشرت إلى ذلك. إلا انه في مدينة «فوجيوا»[٣] Voceua فإن النقد الذي يستلم في القلعة بوزن مئة درهم تعطي عن كل مئة درهم خمس مؤيديات أقل مما في المدينة. مع العلم أنهم يسلمون المبلغ في فترة أربعين يوميًا وبما يعادلها من الشاهيات أو اللاريات[٤].

الضرائب

إن الضرائب في هذا المكان هي بمعدل ستة بالمئة عن مختلف أنواع البضائع، سواء أكانت عند الدخول أو المغادرة.

---

(١) نقد بندقي من النحاس انتشر في القرن الخامس عشر دعي أحياناً باكاتيني الذي سبق شرحه في الهامش ١٨٥.

(٢) الدرهم هنا يشير إلى الوزن لا إلى العملة.

(٣) لم يشر أين تكون هذه المدينة.

(٤) هذه الفقرة غير واضحة، اعترفت بذلك المحققة الإيطالية بينيتو!

كما أن الطواف والبواب يتسلمون ستة مؤيديات عن الرأس سواء عند القدوم أو عند الرحيل.

وإذا ترك شخص بضاعته في الكمرك عند وصوله فإنه لا يدفع شيئاً عند خروجه، ولكن عندما يريدون بعد الإنتهاء من المعاملة أخذ البضائع استعداداً للرحيل فينبغي أن يعودوا ويقدموا للطواف[1] والبواب ثلاثة مؤيديات عن البضائع عن كل رأس ولا يقع عليهم أي شيء آخر.

وقد يحدث أحياناً أن «الأمين» عند تقديره البضائع يحاول تقديرها أعلى من قيمتها ولا يكتفي بالتقدير المعقول، عندئذ بالإمكان أن يقال له أن يأخذ من البضاعة نفسها ما يعادل الستة بالمئة - بحسب تقديره نفسه - وفي هذه الحالة لا تدفع له نقود المكس وهذه عادة جارية ومألوفة بأمر من السلطان.

بعد إيفاء الرسوم، لا بد من إتخاذ الأمور الضرورية والإستعداد للرحيل، ولكن قبل فعل ذلك من الضروري جدًّا مطالبة الأمين بقائمة مفصلة مذيلة بختمه، يسجل فيها تفاصيل البضاعة كلها. وقبل مغادرة المدينة يحضر الأمين بنفسه للتدقيق، لكي في حالة العودة إلى المدينة مع بضائع أخرى لا يعطى المجال لإنتزاع اتاوة أو أن يصبح التاجر ضحية مكيدة من المكائد التي هي من عادات أولئك الناس!

---

(١) سبق شرح هذه الوظائف في الهامش ١٥٨.

الموازين من جديد

من المفيد أن تعلم أيضاً أن مئة مثقال في مدينة البصرة تزن ١٧ أوقية ونصف (صغيرة)[1] في حساب البندقية أما في حساب حلب - فكما بيناه - تعادل ١٥٠ درهماً (وزنا).

القنطار الدمشقي والطرابلسي وقوامه ١٠٠ رطل، أي ما يعادل ٦١٨ ليرة (صغيرة) في مدينة البندقية.

القنطار الحلبي المذكور أعلاه وقوامه ١٠٠ رطل، يساوي ٧٢٠ ليرة (صغيرة) في البندقية.

قنطار عمان وقوامه ١٠٠ رطل يساوي ٧٤٠ ليرة (صغيرة) في حساب البندقية.

أجور السفن

يتم تخمين أجرة السفن في مدينة البصرة إلى هرمز، على متن السفن المسماة «طرادات»[2] وذلك حسب حجمها:

---

(١) أرجع إلى الهامش ١٥٠.

(٢) طرادة (ج: طرادات وطراريد) وهي عربية فصيحها طراد، وهي سفينة صغيرة مطلية بالقار، سريعة الجريان كاظم الدجيلي: السفن في العراق، مجلة لغة العرب ٢ (١٩١٢) ص١٠١.

□ طرادة الحمل حجم عشر كرات[1] تؤجر بمئة وثمانين لاريا.

□ حجم خمسة عشر بمئتين وسبعين لاريا.

□ حجم عشرين كارة بثلاثمئة وستين لاريا.

□ حجم ثلاثين كارة بخمسمئة وأربعين لاريا، ويجب أن نعلم أن «الكارة» تساوي أربعة قناطير بوزن البصرة.

ويعطون للناخداه[2]، وهذا هو لقب صاحب الطرادة أي السفينة، عن التحميل قنطاراً واحداً، وإلى بقية الملاحين ثلاثة قناطير. فالمجموع الكلي إذا أربعة قناطير. وبعد دفع المبالغ المذكورة عن الأجور، لا تدفع بعدئذ نفقات أخرى للمعيشة، ولكن يلزم أن نشرح هذه الأمور بوضوح في إتفاقية استئجار الطرادة بحيث لا يجوز تحميل رطل واحد أكثر من المتفق عليه؛ لأنه إذا ما رأوا في هرمز أن هؤلاء الناخداه حملوا السفن أكثر مما هو متفق عليه يحاسبون ويتم إيقافهم. وهذا إجراء جيد لإيقافهم عند حدهم. فنحن في هرمز كأننا في بلدنا[3]، وهناك في هرمز لا يبالون بأمثال

---

(١) من موازين الحنطة سيصفه المؤلف بعد أسطر.

(٢) أي رئيس السفينة (فارسية) شرحها أدي شير، «رئيس السفن مأخوذ من ناخدا وهو مركب من ناو أي سفينة ومن خدا أي صاحب». الألفاظ الفارسية المعربة (بيروت - ١٩٠٨) ص١٥٠.

(٣) لأنها كانت تحت الاستعمار البرتغالي.

هؤلاء. وبهذه الطريقة يعملون على ردعهم ويضعون حداً لطمعهم، لأنهم طمعاً بالربح كانوا يحملون المراكب فوق طاقتها دون مبالاة إلى ما في ذلك من خطر على الأرواح وعلى السفن ونحن نشهد على كل ذلك فقد كنا نفقد الحياة والمال في رحلتنا.

وخلاصة القول أن هؤلاء عندما يبحرون بطريق النازل[١] أي طريق الذهاب يعرفون عز المعرفة أنهم تحت طائلة المحاسبة في هرمز إذا ما وجد في سفنهم أكثر من الحمولة فسينالهم عقاب صارم إضافة إلى الغرامة التي سوف تؤخذ منهم عن الحمولة الزائدة لذا فمن الضروري أن يتم الإتفاق بفطنة وبحضور الأمين أو أحد الشخاص المعتبرين من أهل البلد.

وبهذا الكفاية في موضوع الموازين والنقود والمقاييس ولنا عودة إليه في الفصل الرابع والأربعين عندما سنتكلم عن طريق الاياب من جزيرة هرمز إلى البصرة.

---

(١) أستعمل الكلمة العربية في النص.



الفصل الثاني عشر

الإبحار من البصرة إلى جزيرة هرمز

الحمام الزاجل

لا أظن أن الكلام الآتي سيعد خارج موضوع الرحلة، إذ يطيب لي قبل أن أضع خاتمة الفصل الخاص بأهم أخبار البصرة، أن أروي أمراً لعل بعض الناس لا يصدقونه، ولكنه حقيقي، ومفاده أن بعض التجار الذين يتعاملون بين البصرة وبغداد يحضرون معهم من بغداد بعض أنواع الحمام، لأنها كثيرة في تلك المدينة. وعندما ينقلون الحمام داخل أقفاص، لا يدعون الضوء يتسرب إليها بكثرة. فعندما يصلون إلى البصرة يحبسون الحمام في غرفة إلى أن تحين الفرصة ليتصلوا بجماعتهم في بغداد من أجل أطلاعهم على هبوط أسعار التوابل أو صعودها في سوق البصرة، فيكتبون رسالة ويربطونها تحت جناح الحمامة. ولكي لا تضيع المعالم على الحمام فلا ترجع إلى البيت الذي تربت فيه، يخرج التجار إلى خارج المدينة مسافة ميل تقريباً، ويطلقون

الحمام من هناك[1]، فيصل إلى بغداد في اليوم نفسه فعندما يلاحظ صاحب البيت وصول الحمام يخرج الرسالة ويطلع على فحواها، وهكذا يتعرف تجار بغداد على شؤون السوق بطريقة سهلة لا تكلفهم شيئاً مع المحافظة على السرية في الوقت نفسه، وهذا أمر جزيل الفائدة لهؤلاء التجار.

مغادرة البصرة

بعد أن أدينا ما علينا من رسوم، وقدمنا الهبات الضرورية في البصرة، ثم تحرينا عن شؤون البحر فتأكدنا من إستتباب الأمن فيه، عندئذ استأجرنا على بركة الله إحدى السفن من النوع الذي يمخر ما بين البصرة وهرمز، وذلك في اليوم التاسع من نيسان (١٥٨٠) وقد استأجرنا السفينة باكملها من العنبار إلى السطح، لأنهم يحجزون عادة العنبار

---

(١) في الطبعة اللاتينية للرحلة يوجد رسم يمثل ثلاثة تجار يطلقون الحمام (بينيتو) وكذلك في الطبعة الهولندية ومنها نسخة في مكتبة المتحف العراقي. وعن الحمام أنظر الجاحظ: الحيوان ١: ٤٣٥ تحقيق يحيى الشامي، القاهرة ١٩٩٧ الدميري: حياة الحيوان الكبرى ١: ٣٨٢، القاهرة ١٣٧٤ هـ ويسمي النويري هذا النوع من الحمام «العلوي» ويقول عنه انه: «يطلب وكره ولو أرسل مسافة ألف فرسخ، ويحمل البطائق ويأتي بها» النويري: نهاية الأرب ١٠: ٢٧٠ وأنظر: ميخائيل صباغ: مسابقة البرق والغمام في سعادة الحمام باريس ١٨٠٥ واعاد نشرها حكمت توماشي، مجلة المورد ٢ (١٩٧٣) العدد ٣ ص١٤١ – ١٥٢.

لتعبئته بالتمور. أما المبلغ الذي اتفقنا عليه فهو ٢٠٠ لاريا، ونحن نعلم أن هذا المبلغ هو أعلى من المألوف لكننا إضطررنا إلى ذلك لأن السفن رفضت الخروج إلى عرض البحر خوفاً من القراصنة، لأن عدداً كبيراً من السفن كان تم استئجاره وكانت متأهبة للرحيل لكنها لم تقلع للسبب المذكور، إذ كان القراصنة يجوبون البحار وينهبون كل ما تصل إليه ايديهم.

حملنا البضائع في السفينة وفي مساء الحادي والعشرين من نيسان صعدنا على السفينة، وفي صباح اليوم التالي تركنا قناة البصرة وتوجهنا إلى نهر دجلة الكبير[١] الذي يوجد على ضفته ضريح أحد أوليائهم، ويسمى ذلك المكان «سيكالي» Siccali ومن عادات الملاحين أنهم حين وصولهم إلى هذا الموضع يطلبون تبرعاً من التجار فيتصدقون من أموال الآخرين على الضريح المذكور.

دخلنا النهر، وإذ كانت المياه بإرتفاع بسبب المد لذلك أوقفنا السفن. وكان برفقتنا سبع سفن أخرى فضلاً عن سفينتنا، ولم نستطع التقدم نحو البحر إلى أن بدا الماء بالهبوط أو الإنحسار بعد منتصف النهار، عندئذ بدأنا بالتقدم

(١) بالأحرى شط العرب.

قليلاً بالرغم من معاكسة الريح لنا. وأخيراً توغلنا إلى العمق مع حلول المساء فقضينا ليلتنا الأولى في البحر.

ما يجب معرفته بصدد السفن، أننا عندما نريد سحب سفينة نربط حبلاً بكوثل القارب الساحب ونربطه بين الخشبتين(؟).

في صباح اليوم التالي وهو ٢٣ نيسان استعملنا الأشرعة وساعدتنا لحسن الحظ ريح الشمال فوجدنا في وسط النهر بعد مسيرة قليلة جزيرة بها بيوت تسمى «فوجيادي» Fugiadi حيث شاهدنا عدداً كبيراً من المراكب الشبيهة بسفننا وكانت تمخر بين هرمز والبصرة أو العكس.

وصف السفينة[1]

قبل أن استطرد في الكلام، أرى من المفيد في هذا الصدد أن أتكلم قليلاً على هذه السفن الت تمخر بين البصرة وهرمز، فهي مقعرة الأسفل ولا غطاء لها، صدرها ملموم وكذلك مؤخرتها والجزء الذي يشق الماء عريض، لكنه أقل عرضاً من تلك السفن التي يقال لها «قره موسالي» مع العلم أن الكوثل هو أعلى من الصدر، وأن الدفة مربوطة إلى

(١) يراجع عن السفن: عباس العزاوي: السفن الشراعية في الخليج العربي، مجلة المورد ٥ (١٩٧٦) العدد ٢: ص١٩٧ - ٢٠٠ نشرتها راجحة عباس العزاوي.

الكوثل أي في المؤخرة بحبال مجدولة من سعف النخل، وهي مشدودة بقوة ولذلك فإن الدفة لا تتحرك إلى الجهتين أكثر من مسافة أصبعين لا غير، لكن هذه الحركة البسيطة كافية جدًا لإدارتها؛ لأن هذه الأنواع من الدفات دقيقة في الأعلى وكأنها قطعة واحدة مع الكوثل من سطح الماء إلى فوق فتظهران شيئاً واحداً.

أما طريقة قيادة الدفة فتتم بقطعة خشب ظاهرة فوق الماء يبلف طولها أكثر من ذراع مثبتة من وسطها في طرفي الدفة، ويوجد حبل مربوط بهذه الخشبة من جهتها البارزتين، وبالإمكان سحبها بحسب الحاجة إلى اليسار وإلى اليمين، والحبلان مربوطان إلى لوح مثبت في السفينة من جهتها أيضاً، ويمر هذا اللوح تحت الكوثل ويبرز قليلاً من الجهتين بقدر خطوة واحدة.

يجلس الربان على لوح في الوسط ويمسك الحبلين بيده فيجر هذا الحبل تارة والحبل الآخر تارة أخرى بحسب الضرورة التي تستوجبها قيادة السفينة.

تقوم الساريات في وسط السفينة، أما الأشرعة المستعملة فتشبه أشرعة سفننا التي نسميها «المربعة» وقد مر ذكرها، وعندما لا تضرب الريح مؤخرة السفينة يضعون شراعاً صغيراً يطلقون عليه اسم «سمبوسة» لأنه شراع مساعد

ويمكن أن يشرع من هذه الجهة أو تلك حسب هبوب الريح وإتجاهها وقد يربط إلى الشراع الكبير أيضاً.

إن الحبل الذي يستعمل لسحب الشراع إلى الأعلى يضعونه عند المؤخرة مربوطاً بالخشبة التي مر الكلام عنها أي تلك التي يجلس عليها الربان، بعكس العادة المعمول بها عندنا إذ نتركه عند السارية.

يوجد فوق المؤخرة موضع مغطى بأخشاب وحصران يبلغ ارتفاعه أكثر من ثلاثة أذرع ويشبه ما هو موجود في السفينة المسماة «قره موسالي» التي ورد ذكرها قبل قليل.

ترتفع في مؤخرة السفينة أربعة أعلام كبيرة. إثنان من كل جهة إضافة إلى علم آخر في الوسط لكنه أصغر من الأعلام الأخرى.

تحمل كل سفينة أو طرادة قطعتين من حديد في المقدمة في الصدر بصفة مرساة لإيقاف المركب عند الحاجة وذلك بإنزال المرساة إلى الأسفل بالحبال.

يصنع الشراع من قماش غليظ كالقنب، وتكون الأشرعة على أنواع فمنها كبيرة ومنها صغيرة حسب الحاجة.

يحملون في السفينة بيرقاً أو عموداً يثبت في جهة السفينة اليسرى في المقدمة ولعله يفيد كعامل توازن.

كما يحملون أيضاً موقداً[1] يضعونه قريباً من السارية من جهة الكوثل بين صندوقين مخيطين ومشدودين بحبال قوية، ولا يطلى الصندوق بالقير لكنهم يستعملون عوضه دهن السمك ويملأون الصندوقين بالماء العذب ويحافظون عليه بإهتمام إذ يستعملون هذا الماء للشرب والطبخ ولأن الصندوقين مطليين بدهن السمك فإنهما يحافظان على الماء جيداً. ويطلق على الصندوق اسم «تانجي»[2].

هذه السفن مربوطة بالحبال وبمسامير مصنوعة من الخشب وفائدة هذه الطريقة هي المحافظة على السفينة فلا تتحطم بسهولة إذا ما اصطدمت كما لو كانت مصنوعة بمسامير حديد.

إنها بالحقيقة أقوى وأكثر إستعداداً للحوادث التي قد تصادفها في البحر. ومن أجل إعدادها لهذه الحالات فإن السفن مبطنة من الداخل بسعف النخيل، وهذه البطانة ليست متصلة مباشرة بجسم الفينة أو قعرها بل تفصلها فواصل، لذا فعند تسرب الماء قليلاً إلى الباطن يبقى في قعرها تحت هذه البطانة.

---

(١) لعله يريد أن يقول مشملاً؟ أو هو مكان الطبخ فعلاً.

(٢) ومنها كلمة تانكي المستعملة عندنا، أو من طنجرة وتنجرة بالتاء، قدر من النحاس (فارسية) دوزي: تكملة المعاجم العربية ٧: ١٠٨.

يربطون إلى صدر السفينة قارباً صغيراً. ولكي لا ينصب إهتمام ربان السفينة على القارب، فإنهم يعينون عاملاً خاصاً يهتم بنشر الشراع الخاص به عند الحاجة أي عند هبوب الريح.

أعتقد أني أطلت الكلام دون أن أدري في شرح أمور هذه السفن. لهذا فلندع هذا الموضوع ولنعد إلى وصف رحلتنا.

تكملة الرحلة

لنعد الآن إلى الحديث عن رحلتنا إلى هرمز، فأقول: اننا واصلنا الأبحار، ففي الثاني والعشرين من نيسان[١] نحو منتصف الليل وصلنا جزيرة كبيرة جدًّا وجميلة للغاية وعامرة بأشجار النخيل تدعى «فيجادة»[٢] وكانت كل الأراضي إزاء الجزيرة أي على ضفتي النهر خصبة ومزروعة.

كان مجرى النهر في ذلك الموضع واسعاً جدًّا شبيهاً بمجرى نهر النيل. وهناك يتفرع من النهر جدول يجري في أرض «بيرين»[٣] (اسجونفان)[٤] ثم يصب في البحر الذي

(١) أخطأ السائح على ما يبدو لأنه سبق أن قال انه بهذا التاريخ ترك قناة البصرة.

(٢) سبق ذكرها قبل قليل وسماها فيجادي.

(٣) هل يشير إلى البحرين؟

(٤) أدخلها المؤلف خطأ هنا، وهي بين قوسين في الأصل.

يصطاد منه الناس اللؤلؤ. ولكون ذلك الفرع قليل العمق فهو لا يفيد لسفينتنا، لذلك لم نتوغل فيه بل بقينا في النهر الكبير. وعند حلول المساء توقفنا عند رأس جزيرة تقع بالقرب من البحر الذي هو الخليج.

في الساعة الواحدة من صباح اليوم التالي توغلنا في البحر وكان هادئاً جدًّا. لذا لم نستطع قطع مسافة طويلة لإنعدام الريح. وفي منتصف النهار هبت ريح سموم شرقية قوية للغاية وكانت معاكسة لنا، حتى اقتضت الحالة أن ننزل المراسي من الجهات الأربع في موضع إزاء بلاد العرب الواقعة إلى اليمين فعن يسارنا تقع أرض فارس.

في صباح اليوم التالي وهو ٢٥ من الشهر المذكور، سرنا سيراً حسناً منذ بزوغ الشمس تدفعنا ريح الجربياء الطيبة. وكانت مقدمة السفينة تمخر البحر بخيلاْ! وبعد شروق الشمس بساعة كنا قد وصلنا إلى المنطقة التي تنتهي فيها السيطرة التركية.

لم يكن لأولئك الملاحين بوصلات، لذلك كنا نسير ووجهتنا قبالة الأرض العربية، وعلينا في الوقت نفسه تجنب الصخور الموجودة تحت سطح الماء في الناحية الأخرى التي هي جهة بلاد فارس. وتمتد هذه الصخور مسافة طويلة تحت سطح الماء نحو ستة أميال، ويطلق عليها أسم «رأس الخان».

ولما كانت الرياح الشمالية حسنة فقد أكملنا سيرنا حتى منتصف الليل. ولكن بعد ذلك هبت رياح عاتية فتملكنا الفزع من أن تبتلعنا الأمواج. ولشدة الرياح انسكب ماء الشرب المحفوظ في أحد الصندوقين، وتقطعت الحبال المربوطة إلى الدفة، وبالكاد أستطعنا أن نحافظ على سلامة الشراع. فبقيت السفينة بلا قيادة وزاد الخطر أكثر من السابق فشرعنا نصلي! وأخيراً توقفت الريح وهدأ البحر نحو الساعة ٢١ من اليوم السابع والعشرين من ذلك التشهر فأكملنا السير طوال الليل.

صباح اليوم التالي وهو ٢٨ من الشهر وصلنا إلى موضع يقع إلى اليسار أي قرب الشواطئ الفارسية وهي جزيرة يقال لها «الجبل». هناك غطس رباننا في البحر لأنه لاحظ وجود ثقب في المركب كان الماء يتسرب منه. فأدخل في الثقب قطعة خشب مصنوعة خصيصاً لسد مثل هذه الثقوب يبلغ طولها نصف ذراع، ويلف في رأسها شعر - ذيل - حصان. فالرجل الذي يغطس في الماء يذهب إلى موضع الثقب في السفينة وما أن يمد الخشبة المذكورة حتى يجذب الثقب الشعيرات فيدفع الخشبة حالاً. إنه امر عجيب حقاً بهذه الطريقة يعرف صاحب السفينة أين هي العيوب في سفينته فيعالجها حالاً كما حدث في سفينتنا. وأضيف بهذا الصدد شيئاً آخر عن هؤلاء الملاحين، فهم عند الغطس

يضعون على الأنف قطعة من قرن الجدي تطبق على المنخرين بقوة. والأمر الذي لا يصدق أن أمثال هؤلاء الغطاسين يبقون مدة طويلة تحت الماء، وهذه حقيقة رأيتها بأمّ عيني!

(يكمل بالبي الحديث عن رحلته إلى هرمز).. وأخيراً وصلنا إلى ميناء هرمز، واستغرق السفر من البصرة إلى هنا ٣١ يوماً، لأننا غادرنا البصرة في ٩ نيسان ١٥٨٠ وفي العاشر من أيار وصلنا إلى هرمز.

مقاييس هرمز[١]

إن المقاييس المستعملة في هرمز تكبر بنسبة ٢٥ وثلثين بالمئة نسبة إلى تلك المقاييس المتداولة في بغداد والبصرة. فإذا حملت إلى هرمز مئة ذراع قماش أو أي شيء آخر أخذته على قياس بغداد أو البصرة فإنه سيصبح بحساب هرمز ١٢٥ كوفادي[٢] زائداً ثلثين من هذا المقياس.

(خصص بالبي الفصل السادس عشر في الحديث عن

---

(١) خصص المؤلف الفصل ١٥ بالمقاييس والموازين والنقود المتداولة في هرمز كما فعل بالنسبة إلى بغداد والبصرة، فاقتصرنا على ترجمة ما يفيد الباحث العراقي.

(٢) مقياس برتغالي الأصل للطول يساوي ٦٦ سم تقريباً، ويعتبر بالبي اول من ذكر هذا المقياس بين الرحالين (بينيتو).

أجور المراكب من هرمز إلى الهند، وهذا الفصل لا يهمنا، ثم سرد في قائمة طويلة أسعار مختلف التوابل والمواد التجارية المهمة مقابلاً إياها بالنقود البندقية (ص١٢٥ - ١٢٨ من النص الإيطالي) ولو قارن صاحبنا هذه الأسعار بنقود البصرة أو بغداد المتداولة آنذاك لعمدت إلى ترجمتها إلى العربية لفائدة الباحثين لكنه لم يفعل).



الفصل الثالث عشر

العودة من البصرة إلى بغداد في نهر دجلة

أخيراً وصلنا إلى البصرة بعد أثنين وعشرين يوماً منذ مغادرتنا هرمز[١]. وبعد أن أمضينا ثمانية عشر يوماً في البصرة، وأدينا ما علينا من رسوم أكملنا الإستعدادات الضرورية لرحلة العودة، وكانت مجموعة السفن المهيأة للرحيل نحو خمسين سفينة. وأقمنا رئيساً للكار[٢]. له سلطة الأمر والنهي على السفن كلها. ويقال لهذا الرئيس في التعبير المحلي «كروان باشي»[٣] وكان رجلاً ماهراً له خبرة واسعة في طبيعة تلك المناطق وكان يعرف جيداً المواضع التي يكمن فيها اللصوص.

فلما وصلنا إلى قلعة القرنة توقفنا لندفع شاهيين عن

---

(١) استغرق سفر العودة أقل بكثير من سفر الذهاب إلى هرمز.

(٢) هو مجمع السفن المنحدرة أو المغربة، كالقوافل في البر (كاظم الدجيلي: السفن في العراق، مجلة لغة العرب ٢: ص١٠١).

(٣) لفظة تركية تعني رئيس القافلة.

كل سفينة فهذه هي العادة الجارية، واستلمنا ورقة تشهد بأننا أدينا ما يتوجب علينا من رسوم، ولذا نستطيع المرور.

ويتم التوقيع على هذه الشهادة في كل مكان يتوجب علينا فيه دفع الرسوم.

ولما وصلنا إلى «الزكية»[1] دفعنا خمس شاهيات وقطعتين من فئة المؤيدي عن المركب وعن «التيزال» وهي قوارب صغيرة تؤخذ في السفر لإنزال البضائع فيها إذا حدث لسوء حظ المسافرين ارتطام إحدى السفن بموضع ضحل. ففي هذا الوقت من السنة تكون المياه منخفضة في نهر دجلة. وندفع عن هذه القوارب الصغيرة سبع قطع من فئة المؤيدي. ولهذا عندما يسلمون الشهادات - أي الوصولات - عن السفن يذكرون فيها عدد القوارب أيضاً.

أما في «كرت» Chert فإنهم يستوفون أربع قطع من فئة البندقيات على أعتبار أن كل بندقية تعادل ٨ شاهيات، أعني أننا ندفع عن السفينة أربع شاهيات ومؤيدين وعن القارب الملحق أي ضمن التيزال ١٧ شاهيا. وفي هذا الموقع يعطون للمسافرين تذكرة[2].

---

(١) معجم البلدان ٢: ٩٣٨ سركيس: مباحث عراقية ١: ٢٦٤.

(٢) قال بالبي (تسكره) وهي التذكرة أي ما تستذكر به الحاجة وهي الشهادة أو ورقة السفر.

وفي «العمارة» تستوفى ثلاث شاهيات عن الحمل الواحد، لكنهم هنا لا يعدون الأحمال بل يكتفون بتقدير عددها في كل سفينة لكي لا ينزلوا البضائع من على متن السفينة؛ اما عن القوارب الملحقة فيستوفون ٢٢ مؤيديا.

أما في «الجديدة» فيأخذون ١٧ شاهية عن السفينة يدفع التاجر منها تسع شاهيات والباقية على صاحب المركب.

إنهم يطلبون الشهادة التي ذكرناها سابقاً لسببين:

الأول - لفائدة التاجر على أنه أدى ما عليه من رسوم في كل الأماكن التي مر بها. والسبب الثاني - لخير السفن نفسها: إذ ينبغي على التاجر تسليم جميع الشهادات (أي الوصولات) التي جمعها إلى أصحاب السفن من أجل إبرازها في طريق الرجوع إلى أماكنهم فتشهد على أنهم دفعوا كل الرسوم المترتبة عليهم. وبعكس ذلك يتوجب عليهم الرسوم ثانية إذا أرادوا المرور.

الوصول إلى بغداد

أستغرق السفر من البصرة إلى بغداد ثمانية وثلاثين يوماً. تملكنا الخوف خلال هذه الأيام تارة من قطاع الطرق، وتارة أخرى خوفاً من الغرق، لأن السفن كانت تصطدم الواحدة بالأخرى خاصة عند نشر الأشرعة إذ تدفعها الريح أو عندما تحاول إحدى السفن السباق مع الأخرى!

أخيراً وبعون الله وصلنا بغداد في الثالث والعشرين من شهر تشرين الأول (سنة ١٥٨٧) وكان يحكمها آنذاك الوزير التركي سنان باشا بن القبطان جيكالا الصقلي[١].. فقدمنا له طائراً فريداً يسمى (حوري)[٢] وهو من أجمل الطيور التي بالإمكان الحصول عليه لتنوع الوان ريشه، ولأنه ينطق على شاكلة البيغاء، وقد حملناه من الهند، لكن موطنه الأصلي في (ملقة) حيث منشأ القرنفل.

قدمنا للباشا ثلاث شاشيات[٣] ليعمم بها رأسه.. ولما كان هذا الوالي يرعى الإيطاليين بصورة خاصة، فقد أظهر لنا التفاتا عاليا وقدم لنا مساعدة منقطعة النظير.

بعد أن استقرت سفننا الواحدة بجانب الأخرى في صف واحد كما هي العادة، قدم موظفو (التمغة) العاملون في الكمرك[٤] كما حضر كتخدا[٥] الوالي وتبعه الدفتردار[٦]

---

(١) كلش خلفا: ص ٢٠٩ ولمزيد من المعلومات عن جغالة ازاده راجع: رحلة ديللافاليه إلى العراق ص١٧٩.

(٢) لم أجده عند الجاحظ ولا عند الدميري. وقالت بينيتو أن اسم الطائر لوري أو نوري.

(٣) سبق شرحها في الهامش ١٨٥.

(٤) التمغى تعني الختم وهنا تعني الرسم أو السمة.

(٥) لعله محمد باشا المذكور في كلس خلفا: ص ٢٠٩.

(٦) رئيس موظفي الواردات والخزينة في الولاية (تركية).

وشرعو بأفراغ السفن من الأحمال، الواحدة بعد الأخرى، فلما انتهوا من إنزالها شرعوا بالتخمين وهنا يجب إيفاء الرسوم خلال عشرين يوماً أو شهر ولا بأس خلال شهرين حسب ما يكون الجباة بحاجة إلى المال.



المصادر والمراجع

- باقر، طه وسفر، فؤاد: **المرشد إلى مواطن الآثار والحضارة، الرحلة الأولى: بغداد - عنه - القائم،** بغداد، ١٩٦٢.
- الجاحظ: **كتاب الحيوان،** في مجلدين، شرح وتحقيق د. يحيى الشامي، بيروت ١٩٩٧.
- الحديثي، فرحان أحمد سعيد، **آل ربيعة الطائيون،** بيروت - الدار العربية للموسوعات ١٩٨٣.
- الحموي، ياقوت: **معجم البلدان** ط. ويستنفيلد.
- الدجيلي، كاظم: السفن في العراق، **مجلة لغة العرب** ٢: ٩٣ - ١٠٤، ١٥٢ - ١٥٦.
- الدميري، كمال الدين: **كتاب حياة الحيوان الكبرى،** في مجلدين القاهرة، ١٣٤٧هـ.
- دوزي، رينهارت: **تكملة المعاجم العربية،** ترجمة د. سليم النعيمي. بغداد (١١ جزء).

- ديللافاليه: رحلة ديللافاليه إلى العراق، ترجمة الأب د. بطرس حداد، بغداد - ٢٠٠١.
- سركيس، يعقوب، مباحث عراقية، جـ ١ (بغداد ١٩٤٨) جـ ٢ (بغداد - ١٩٥٥) جـ ٣ (بغداد - ١٩٨١).
- نظرة في كتاب النقود وعلم النميات، مجلة المجمع العلمي العراق، جـ ١ (١٩٥٠) ص ٢٥٢ - ٢٩٤.
- العزاوي، عباس: تاريخ النقود العراقية، بغداد - ١٩٥٨.
- فيدريجي: رحلة فيدرجي إلى العراق، مجلة المورد (١٩٨٩) العدد ٤ ص ١٩٦٣.
- الكرملي، الأب انستاس: النقود وعلم النميات، القاهرة - ١٩٣٩.
- المعاضيدي د. خاشع: من بعض أنساب العرب: أعالي الفرات، بغداد - ١٩٨٦.
- معلوف د. أمين: معجم الحيوان (بيروت - بلا تاريخ).
- موزيل، الوا: الفرات الأوسط، رحلة وصفية ودراسات تاريخية، ترجمة د. صدقي حمدي وعبد المطلب عبد الرحمن داود، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٩٠.

- نظمي زاده مرتضى: كلش خلفا، ترجمة د. موسى كاظم نورس، النجف ١٩٧١.

- F. R Chesney: Expedition for the survey of the river. Euphrates and Tigris, London 1950.
- Idem: Narrative of the Euphrates expedition, London 1968.
- Musil, A: The Middle Euphrates, New York 1927. A.
- VIAGGIO DELLINDIE ORIENTALI DI GASPARO BALBI
- GIOILLERO VENETIANO
- Traduzione araba
- P. BUTRUS HADDAD
- Baghdad 2002



الفهارس العامة



فهرس الأعلام

فهرس الأماكن

فهرس عمراني





فهرس المحتويات